

مشروع مكتبة الأسرة للجيب — روايات مصرية للجيب
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
46
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com
المرض السابع

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًّا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًّا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًّا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..



1ـ إجـازة ..

عندما بدأ المغص يلوى أحشاء (جيمس برادلى) ، وعندما شعر بذلك التنميل فى جلد وجهه وفى طرف لسانه ، وعندما لم يستطع فتح كفه التى امتلأت بالعرق ..

عندها فقط قال لى :

ـ « الأمر كما ذكرت لك يا علاء .. »

لكنى كنت غير مقتنع .. بالتأكيد أشعر بوجود خلل ما ..

شعرت بالغبن .. لماذا لا يستطيع الإنسان أن يعرف الأسرار الخافية عنه لمجرد أنه يريد ذلك ؟.. ولتكن رغبتك مبررًا كافيًا كى يتحقق ما تريد .. هذا شىء يثير حفيظتى !!

★★★

عرفت جيمس برادلى فى مدغشقر ..

كنت قد خرجت من تجربتى مع المخدرات وقصة السماء الأرجوانية إياها مزعزعًا مرتبكًا .. صرت أرتكب أخطاء بالجملة

وأفشل فى تذكر وجوه المرضى ، كما صرت أتذكر أسماء الأدوية بصعوبة بالغة ..

الحقيقة أننى بدأت أعتقد أن خللاً دائمًا قد حدث فى مخى .

لا شك أن الخلايا تأثرت فبدأت فى الهذيان ، ثم أصابها دمار شامل ..

هكذا جاء اليوم الذى دخلت فيه إلى د. بارتلييه فى وحدة سافارى ... أترى ؟.. لم تكن السابعة مساء وهذا يعنى أننى لست على ما يرام ..

قلت له وأنا أترنح لأشعره بخطورة الحالة :

ـ « أنا على غير ما يرام يا سيدى .. أرغب فعلاً فى إجازة لمدة أسبوعين .. »

وضع القلم ورفع نحوى وجهه البدين المكتنز .. أعرف عينيه العليمتين بكل شىء ، وأعتقد أن الأخبار قـد بلغتـه فعلاً ... د. علاء يتصرف كالحمقى ..

قال لى وهو يعقد يديه تحت ذقنه الشحيم :

ــ « من ناحية المبدأ موافق .. هل لديك خطط معينة ؟.. »

قلت :

ــ « لم أخطط بعد .. سوف أطلب إجازة مناسبة لبرنادت .. لكنى أرغب فى الابتعاد عن كل شىء .. ولهذا لن أذهب إلى مصر ولا كندا كذلك .. »

وافق على الإجازتين وتمنى لى حظًا طيبًا .. كما تمنى أن أبتعد عن هوايتى المزمنة فى جلب المتاعب.

فى الحقيقـــة كنت قـــد رتبـــت أمـــورى فعلاً ... هناك طبيب من مدغشقر دعانى وبرنادت ، لأن إجـازته تبـدأ بعد أسبوع . بلد غير معتاد للإجازات فلا أعرف عنه إلا قرد مدغشقر الشبيه بـــ (إى تى) ، لكن الرجل وعدنى بأن نحب العطلة فعلاً ..

ليست منطقة غريبة جدًا على كل حـــال ، فهى تعتبر أفريقية على الساحل الشرقى الجنوبى للقارة ، كما أنها قريبة جدًا من جزر القمر وهى ــ الأخيرة ــ أقرب إلى دولة عربية على كل حال .. بل هى كذلك فعلاً ..

المشكلة بالنسبة لى كانت أن برنادت فى مرحلة حمل متقدمة ، وهناك خطر داهم أن يحدث لها شىء .. لكن طبيبة أمراض النساء الصينية الظريفة فى سافارى أكدت لى ألا خطر من ركوب الطائرة ..

ــ « بشرط لا تسقط .. »

ــ « الطائرة .. تتحدثين عن الطائرة طبعًا .. »

ــ « نعم .. نعم .. الطائرة .. »

هذا جميل ومنطقى .. لو سقطت الطائرة وظللنا حيين بشكل ما فهناك خطر على الحمل .. التفاهم مع هذه الطبيبة مريح فعلاً .. كلا الطرفين لا يعرف عما يتكلم الطرف الآخر ..

هكذا بدأنا الرحلة ..

وهكذا بدأت القصة ..

***

كان البيت الذى اختاره لنا صديقى الطبيب (نيرينا) يقع خارج العاصمة (أنتاناناريفو) . المكان أقرب لجنة من الخضرة والحياة الطبيعية الرائعة ..

عامة سرعان ما تلاحظ طابع مدغشقر المميز : المنازل المتلاصـقة المطليّة باللـون الأبيض والمكسـوّة بالقرميـد ، لهـذا يطـلق على مدغشقر اسـم (الجزيرة الحمــراء) إذ إنّ كـلّ ما يحيـط بالزائر لونه أحمـر مـن التـربة إلى أسطح المنازل .

وكان نهر بتسيبوكو قريبًا جدًّا من موضعنا هذا .. يمكن أن تبلغه لو مشيت لسبع دقائق ..

لكن الفقر منتشر جدًّا هنا ، وهذا لا يريح .. غالبًا يجتمع الفقر والجريمة معًا ، ولو لم يحدث هذا لاعترفت لك بأننى أحمق. معنى هذا أننا نمثل السياح الأجانب الأثرياء .. أى أننا هدف ممتاز للسطو .. لهذا لم نكن متحمسين للتجوال وحدنا ..

كانت مدغشقر أو مالاجاش جزءًا من أفريقيا منذ 100 مليون عــام ، ثم انفصـلت وصــارت جزيرة فى المحيــط الهنــدى . ولا شك فى أن هناك جذورًا صومالية قوية للأهالى هنا .. الصوماليون جـاءوا بالقــوارب منــذ زمــن ســحيق وبدءوا الحيــاة ..

ارتبــط تاريخ الجزيرة بالتجــار والبحارة العرب الذين كانوا يتوقفون فيها لالتقاط لأنفاس بعد أو قبل الذهاب للهند ، وهنا تم أول لقاء بين فاسكو دا جاما وأحمد بن ماجد ..

سقطت مدغشقر فى قبضة فرنسا فى القرن التاسع عشر ..

مما يذكر عن مدغشقر كذلك أنها كانت الوجهة المختارة لتجميع يهـود العــالم أولاً ، بدلاً مــن فلســطين .. ومــن المؤسف أن هذا المشروع فشل !.. تصــور أن يعيش رابين وبيجين وشارون وبيريز وكل هؤلاء بعيدًا عند الطرف الجنوبى لأفريقيا !

وفى العام 1960 نالت البلاد استقلالها عن فرنسا .

البلد مليئة بجنسيات عديدة ، لكن يمكن القول إن الغالبية من جنسية تدعى أسترونيزى (من جنوب شرق آسيا) وشرق أفريقيا . اللغــة هى الملاجاشية ، ولكنهـم يتكلمـون الفرنسية بطلاقة . الإنجليزية ما زالت تتعثر ..

كان (نيرينا) نحيلاً أسمر له نظرة حزينة وشعر رمادى منفوش .. يذكرك بالملامح الصومالية بالتأكيد. الفكرة أنه ثرى ويعيش فى بحبوحة عيش .. وقد كان يحبنا بشدة .. أعرف هذا يقينًا .. لهذا قصة طويلة على كل حال ربما أحكيها يومًا ما .. فقط أقول إنه كان يريد التعبير عن عرفانه بالجميل بأى شكل ممكن ، وهذا جعله يعد لنا ما اعتبره شهر عسل ثانيًا ..

استأجر لنا بيتًا من طابق واحد يذكرك بفيلا صغيرة .. هناك حديقة غناء وهناك خادمة اسمها (حسينا) تعنى بأمورنا ، أما البيت من الداخل فمؤثث جيدًا . به كل شىء تبتغيه .. كنت مصرًا على دفع نفقاتنا كاملة لكنه ظل غامضًا فى هذه النقطة ..

قالت لى برنادت وهى تستنشق الهواء :

ـ « كنا بحاجة لهذا بالفعل .. »

الآن قد تضخمت بطنها فصارت تذكرنى ببطـة ظريفة من بط ديزنى .. إن الصغيرة قادمة بسرعة البرق .. أشعر بتوتر لكن

الوقت قد حان كى يكون لنا طفل فعلاً .. الأمر قد تأخر أكثر من اللازم ..

بما أننى أعرف هوايتى للمشاكل كأننى مغناطيس يجذبها ، فمن المؤكد أن كارثة ستحدث .. فقط أدعو الله ألا تؤثر على الحمل ..

أشعر أن أشياء رهيبة ستحدث .. يمكنك أن تراهن على ذلك ..

—

2 - فى بلد الفانيليا ..

عندما تهمس الطبيعة بأسرارها فإننا نرهف الآذان .. لربما قالت لنا سر الأسرار .. لربما أخبرتنا بلغز ظل فى طى النسيان دهورًا ..

عندما تهمس الطبيعة بأسرارها ، فلسوف أسألها عن سر الرحيق الذى جئت منه ، وكيف تجسد عبق الرياحين فى صورة كائن بشرى ، وكيف تجسدت ألحان الآباد فى صوت امرأة ، وكيف يحتشد سحر الكون فى روضة تمشين أنت فيها ..

عندما تهمس الطبيعة بأسرارها فلسوف أغمض عينى وأدعو الله أن تظلى معى ..

عندما تهمس الطبيعة بأسرارها فلن أكون ممن لا يصغون ..

★ ★ ★

الحديقة المجاورة للبيت كانت رائعة الجمال .. هناك أزهار لا أعرف أى شىء عن أسمائها .. بعضها يبدو ساحرًا وبعضها يبدو رقيقًا وبعضها يبدو مفزعًا ... يذكرك بالنباتات آكلة لحم البشر التى تراها فى الأفلام ..

لم نكن على كل حال نمضى وقتًا طويلاً فيها ، لأننى لست خبيرًا فى أمراض هذا الموضع من العالم .. لربما لدغتك حشرة ما أو خدشت جلدك شوكة ما ، عندها تكتشف أنك الحالة الأولى من وباء غامض ... تذكر أن حمى لاسا النزفية عرفها العالم أول مرة من ممرضة هولندية فى نيجيريا كانت تقتطف الأزهار ، وجرحت إصبعها شوكة .. بعد ساعات، كانت تنزف من كل فتحاتها وكان العالم كله يرتجف لدى معرفة أخطر حمى نزفية فى تاريخ الطب ..

الليلة لست راغبًا فى أن أضيف كشفًا علميًا جديدًا للطب .. ليس أنا من فضلك .

لكن مدغشقر فى الواقع بيئة ثرية جدًّا ، وهى زبون دائم لدى كل جمعيات حماية الحياة البرية .. يبدو أنها مثل جزر (جالاباجوس) ظلت منعزلة لفترة طويلة ، وهكذا وجدت الطبيعة فرصة ممتازة لتلعب الكثير من الألعاب فيها .. ولهذا كانت حيواناتها ونباتاتها فريدة .. إن 90% من نباتاتها لا توجد فى أى موضع آخر فى العالم .. وبالطبع قرد الليمور يذكرنا بمدغشقر طيلة الوقت ، ولا تنس قصة قارة ليموريا التى يعرفها

كل المهتمين بغوامض الكون .. إن الليمور على رأس المخلوقات النادرة الموجودة فى الجزيرة . هذه الحيوانات كناية عن أنواع من القردة طويلة الذنب تنتشر بكثافة فى الغابات وفوق الأشجار .

هناك بلدة تدعى بيرينت بها أشهر الحدائق الوطنيّة التى تضمّ العديد من الحيوانات النادرة منها الأنديرى وهو أكبر القرود من فصيلة الليمور . هناك كذلك منتزه رنومافاما وهو الأشهر فى مدغشقر ويحتضن مجموعة غنيّة من الحيوانات النادرة ، كما يشتهر منتزه أندسيا بوجود أنواع كثيرة من القردة ، إيزالو منتزه آخر رائـــع يضمّ غابات من أشجار النخيل بالإضافة إلى آثار تعود إلى حقبة الديناصور ..

وبرغم هذا التدليل البيئى فإن عمليات إزالة الغابات كارثية هنا .. وفعلاً بدأت بعض الأنواع تنقرض ..

من الناحية الزراعية تعتبر مدغشقر أهم زارعى ومصدرى الفانيليا ، واقتصادها يعتمد على الفانيليا بشكل شديد ..

قالت لى برنادت ونحن نقف فى الحديقة المظلمة :

ــ « هل ما زلت تحبنى وأنا أقرب لبطة مصابة بالاستسقاء ؟.. »

ضحكت من التشبيه ثم لثمت يدها ولم أرد .. هناك أسئلة من السخف أن ترد عليها بالإيجاب ..

الطيور تغرد .. حشرات الليل تنز ...

نفير السيارة يعوى !

نظرنا لنجد سيارة أجرة تتوقف خارج الفيلا الصغيرة ، ومن النافذة أطل رأس نيرينا الأشعث إذ جلس جوار السائق :

ــ « هل أنتما مستعدان للسهرة أيها الصديقان ؟.. »

ــ « أى سهرة ؟.. »

ــ « أنا أدعوكما للعشاء .. »

كنت ألبس قميصًا غارقًا بالعرق وسروالاً مزرى الحالة ، وكانت برنادت تلبس ما هو أقرب لقميص نوم فضفاض .. وأقدامنا فى الشباشب .. الخلاصة أن منظرنا لا يسمح سوى بالنوم أو تناول العشاء فى البيت ..

قلت له ضاحكًا :

ـ « أنت لم تخبرنا بذلك من قبل .. لابد من ارتداء ثياب مناسبة .. »

ضحك وأشعل لفافة تبغ ونفث الدخان وقال :

ـ « لم يعد أحد يفكر بهذه الطريقة .. ليس هنا .. نحن فى إجازة ومن حقنا تناول العشاء بأى ثياب تروق لنا .. »

كنا قد بدأنا اليوم بزيارة مبانى أنتناناريفو ذات الطابع الفرنسى المميز ، وقمنا بزيارة القصر الملكى القديم فى شمال البلاد ..

ولما ركبنا السيارة بحالتنا هذه فوجئنا بامرأة سوداء تجلس بالداخل .. تشبه نيرينا جدًا .. قال لنا :

ـ « هذه ميورا زوجتى .. »

تشرفنا يا مدام ..

نصف سكان مدغشقر مسيحيون .. بروتسنتانت .. وهى معجزة حقيقية لأنهم اضطهدوا بشكل غير عادى من ملوك الجزيرة الذين كانوا يؤمنون بالوثنية ، وحتى القرن التاسع عشر

كانت عقوبة اعتناق المسيحية هى الموت. هناك ملكة اسمها رانافالونا اشتهرت بذبح المسيحيين . أما عن الإسلام فهو لم ينتشر فى الجزيرة إلا فيما ندر وبرغم تاريخ التجار العرب الطويل هنا وبرغم أن جزر القمر قريبة جدًا . هناك 15 مسجدًا فقط فى البلاد كلها ..

نيريا يحاول جاهدًا أن يجعلنا نتسلق جبل ماروكوترو وهو أعلى جبل فى مدغشقر .. يقول إن زيارتنا ستكون بلا طعم لو لم نتسلق. قلت له إننى تسلقت جبالاً تكفينى بقية حياتى ..

السيارة تنطلق إلى ساحة متسعة تحف بها المشاعل ويرقص فيها سود بارعون فعلاً .. البعوض كثير جدًا .. والموسيقا مزعجة ..

جلسنا إلى مائدة كبيرة عليها أزهار وفاكهة ، وطلب لنا نيرينا العشاء ..

كان العشاء يتكون من أنواع مختلفة ، وبعض الأطباق لم أجد له اسمًا على الإطلاق .. لذا تخيلت أننى نباتى ورحت ألتهم ما يوضع أمامى .. هناك فواكه يصعب أن أتخيل أنها فى العالم أصلاً ..

ضاحكًا قال نيرينا :

ــ « غدًا نرى الغابة .. سوف تنبهران حقًا .. »

لكنى أعترف لك بأن هذه العطلة كانت ستكون مملة فعلاً لو لم نلق برادلى ..

برادلى الـذى ظهـر فجـأة وهو يرقص مع شقراء جميلة ، وقـد بدا لنـا ثمـلاً إلى حـد ما .. كـان يترنح ولا يحسـن اختيـار خطواته ، ثم حدث المحظـور وسـقط فـوق ميـورا زوجة نيرينـا ..

كان مرتبكًا واعتذر بحرارة وصدق حتى فقد الجميع الرغبة فى لومه .. ولولا ذلك لتكهرب الجو جدًا ..

فى النهاية دعوناه للجلوس معنا .. وأمكننى أن أدرسه جيدًا ..

المصادفة هى أنه طبيـب شـاب وأنه قادم من نيوزيلاندا ..

عدد كبير ممن يقيمون هنـا جـاءوا مـن جزر المحيط على غـرار الملايو ونيوزيلاندا وأندونيسيا .. هـذا ليس غريبًا .. اللغة المالاجاشية نفسها قريبة جدًا من لغة بورنيو الإندونيسية ..

كان نحيلاً رقيقًا له ملامح أنثوية مذعورة ، أما الشقراء فهى زوجته (ربيكا) .. وهى من الطراز الذى نطلق عليه (قوطى) . قرط فى غضروف أنفها وهالات سوداء حول عينيها وطلاء أظفار أسود ... بصراحة لا أعرف جيدًا الفارق بين الإيمو والقوطيين .. قرأت فى موقع غربى أن الإيمو هو هارى بوتر لو بدا قوطيًا !!.. لا أفهم هذه الأمور ولا تعنينى .. ما يهمنى هو أنها بدت كالطفل المشاكس المزعج المخالف .. يصعب فعلاً إرضاء هذه الفتاة التى يبدو أنها ملت كل شىء وجربت كل شىء ..

وعندما ضحكتْ أدركت أننى سأجد تلك الحلية فى لسانها .. لا شك فى هذا ..

كان برادلى ظريفًا فعلاً ارتحنا له جميعًا .. يتكلم بتطجين أسترالى لا بأس به ، وطبعًا أنت لا تتوقع منى أن أعرف الفارق بين اللكنة الأسترالية والنيوزيلندية .. هه ؟

لم نفترق فى تلك الليلة إلا وقد أصر برادلى على أن يستضيفنا فى بيته .. إنه يعيش هنا منذ عامين ، وعرفت أنه متخصص فى الأمراض المعدية ...

سوف نزوره غدًا إن شاء الله ..

ـ « لا أريد ... أريد الاعتذار .. »

قالتها برنادت فى اشمئزاز فلم أفهم السبب ..

ـ « لا تريحنى فكرة قضاء ليلة مع هذه السحلية .. زوجته .. »

قلت لها وأنا ألبس المنامة :

ـ « هناك أشخاص يحسبون من واجبهم أن يكونوا سمجين .. هى من هذا الطراز .. لا مشكلة هنالك .. »

ثم أضفت وأنا أغمض عينى :

ـ « معنى هذا أنها ناجحة جدًا فيما تقوم به .. هذا يستحق الاحترام !.. »

3 ـ العشـاء ..

كان بيت برادلى جميلاً فعلاً ...

لم يكن بعيدًا عن دارنا .. لا فى المسافة ولا فى الملامح. وفهمت أن المقيمين هنا يعيشون فى واحات رائعة الجمال وسط محيط الفقر المحيط بهم ..

هو بيت له حديقة .. والحديقة بها أشجار تحتاج إلى خبير نباتات ليطلق عليها أسماء . طبعًا هناك طيور تغرد فى كل صوب حتى أنها تحدث لك درجة من الصمم .. وهناك حوض ماء تسبح به أسماك ملونة تنعكس عليها كشافات قوية ..

ومن بين قضبان السور يطل علينا الأطفال السود فى فضول ، فلا تشعر براحة .. ذات شعورك وأنت تأكل بينما جائع يراقبك ..

على أرجوحة صغيرة مزينة بالأزهار جلست الزوجة (ربيكا) ممسكة بكوب عصير عملاق ، وقد دست الشفاطة بين شفتيها وراحت تمتص دون أن تنظر لنا ..

أما نحن فجلسنا على مقاعد من الخيزران نحتسى العصير .

جاءت خادمة أفريقية تعلن أن العشاء جاهز فنهضنا .. أراحنى هذا .. لنهرب من البعوض والأطفال والفقراء معًا ..

قال برادلى وهو يقدم مقعدًا لزوجة نيرينا :

ــ « معظم هذه الأكلات من صنع يدى .. أنا أعشق الطهى فعلاً ... »

ثم ساعد برنادت على الجلوس وقال :

ــ « أحب أن أصنع وجبات مختلفة تناسب كل بلد من بلدان العالم .. »

ونظر لى وقال ضاحكًا :

ــ « الكسكسى مثلاً .. سوف يذكرك ببلادك مصر بشدة !... »

أنا لم آكل الكسكسى سوى مرتين أو ثلاث مرات فى حياتى ، ثم أى كسكسى هذا الذى سيقدمه لى رجل نيوزيلاندى فى مدغشقر ؟.. سوف أفرغ معدتى ..

قلت له فى أدب :

ــ « أنت تخلط بين مصر والمغرب العربى .. »

لم يبال بالمعلومة وقال وهو يتناول طبقًا من الطاهية :

ــ « هذا نوع من بلح البحر الذى لا يؤكل إلا فى اليابان .. نموذج آخر لجمعية الأمم المتحدة التى أقدمها فى مطبخى .. »

ملأت طبقى بأصناف لا أعرف ما هى .. ولو عرفت ما هى فلا فارق ، لأن الأخ برادلى صنع أصنافًا تختلف بالتأكيد عن الأصناف الأصلية .. فلنأكل إذن ..

تساءلت برنادت :

ــ « لم نعرف بعد مهنة أو تخصص السيدة برادلى .. »

كنت أفضل أن تتركهـا وشـأنها .. لا تستفز الحيـة الرقطاء أبـدًا ..

قالت السيدة برادلى فى جفاء :

ــ « كنت أصمم الثياب ثم توقفت عن ذلك بعد الزواج .. »

قال برادلى :

ــ « ربيكا فنانة ممتازة .. إنها الأنوثة الحقيقية كما يجب أن تكون .. »

لكن المرأة لم ترد المجاملة ولم تتحمس .. ظلت سمجة كما هى . كانت تتعمد إهانته بشكل واضح . حتى عندما كان يناديها وكنا نحن جميعًا ننظر لها منتظرين ردها ، لم تكن ترد متشاغلة بالأكل .. مع خلجة فى ركن فمها تقول إنها سمعت ...

وكنت قد وصلت إلى استنتاج ممتاز : هى تحب واحدًا آخر .. كل سكناتها وحركاتها وصوتها ونظراتها تقول هذا .. وعلى الأرجح يقاوم برادلى لأنه يحبها ، أو لأنه يكره هدم البيت . . لكن لحظة الانهيار قادمة لا محالة .. بالتأكيد ـ كما نرى فى الأفلام الغربية ـ هى طلبت الطلاق .. لابد أنه يقاوم حتى لا تنهار أموره المادية ..

هذا بيت تعس ..

سألنى برادلى وهو ينقل المزيد من الطعام لطبقه :

ـ « أنــت تعمــل فى الكاميــرون ؟.. كطبيــب .. هــه ؟.. ما تخصصك إذن ؟.. »

ـ « أحاول التخصص فى الجراحة لكن الطريق طويل .. دعك من أننى لا أستذكر بجد بصراحة .. عندى مشكلة فى التركيز .. »

انتهى العشاء .. تلقائيًا اجتمعت النسوة معًا فى ركن القاعة ورحن يثرثرن .. هذا ظريف .. مالاجاشية وكندية ونيوزلندية لكنهن قادرات على الثرثرة وتمزيق (فراء) من يأتى ذكره فى كلامهن. نظرت لبرنادت التى جلست على الأريكة تريح رأسها لوسادة خلف رأسها وقد وضعت يديها على بطنها. المرأة الحامل تشعرنى بشعور دافئ من الاكتمال الأنثوى .. أنثى جدًا .. أنثى بشدة .. ولعل سبب هذا أنها تمارس النشاط البيولوجى الوحيد الذى لا يقدر الرجل على منافستها فيه ، بينما الرجل يطهو أفضل منها ، ويخيط الثياب أفضل منها ، وينظف أفضل منها !.. يحكى بلزاك عندما زار مصر عن ولدين راقصين يعلمان الفتيات الرقص الشرقى ، وقال إنهما كانا أبرع من أى راقصة ، كما أن قبحهما كان يجعلك تركز فى الرقص ولا شىء سواه !

فقط الحمل والولادة والرضاعة هم قدس أقداس الأنثى .. ما من رجل يدنو هناك .. فقط يقف فى رهبة ويرتجف ويفرك يديه غير مصدق .. ربما تدمع عيناه فقط ..

اتجهنا للشرفة أنا والرجلان ، ووقفنا نشرب .. هما يشربان الويسكى وأنا أشرب الشاى بالليمون. نرمق الليل المظلم الذى

بدأ يبرد قليلاً ، بينما يتعالى صوت الطيور التى جاءت لتغفو .. صوت حشرات الليل ..

لماذا تعبق الحدائق بالعطر ليلاً ؟... قرأت التفسير ذات مرة ثم نسيته ..

الليل .. والطيور تهمس بسرها .. للأسف لم نفهم برغم أننا سمعنا .. لو فهمنا لعرفنا كل شىء .. لعرفنا ما يكمن وراء هذا الجبل ، والمكان الذى تغفو فيه الشمس بعد مشقة يوم كامل ..

ومن ضمن الأسرار التى تهمس بها الطيور لغز هو : ماذا يحدث فى هذا البيت ؟

قال برادلى بصوت مبحوح ويبدو أن الخمر فكت عقال لسانه :

ـ « أعتذر عما حدث الليلة .. »

جميل جدًا . لكن لا أذكر أن شيئًا حدث الليلة ..

ـ « لم أرد أن يحدث هذا .. »

يثير غيظى هذا النوع من المواقف .. معنى هذا أننى ثخين الجلد لا أشعر بالإهانة. لابد أنه كانت هناك إهانة شنيعة لكنى كنت أغبى من أن أفهم ذلك ..

أضاف وهو يتأمل الحديقة المظلمة :

ـ « ربيكا تكرهنى .. لكنها لا تقصدكم بهذا الجفاء .. » فهمت !

أكره أن أكون عبقريًا وعلى حق طيلة الوقت لكنها الحقيقة ..



4 ـ استدعاء ليلى ..

وحدى جلست لفترة طويلة فى الشرفة أرمق الليل وأفكر فيما قاله لى برادلى ..

نحن قد عدنا للبيت كما لابد أنك لاحظت ..

لا يوجد جديد .. فعـلاً الأمـور كما توقعت . الزوجة غير الصالحة وغير المناسبة مع الزوج المكافح .. هى غير مستعدة لتضييع عمرها معه .. تريد أن تنعم بحياتها . بالطبع نحن نعتبر الحياة فى مدغشقر استمتاعًا فعليًا بالحياة ، لكن الزوجة لم تعتبر هذا استمتاعًا ..

ثم ظهر ذلك الوغد الذى قابلته فى مدغشقر .. نموذج الوغد الوسيم اللاتينى الذى يعدها بحياة من المتع والنشوات. أراهن أنه ذلك الطراز الذى يقدم الشمبانيا فى ضوء الشموع ثم يجعلها تغمض عينيها ليضع قلادة ماسية حول عنقها .. هذه الحركات (الحمضانة) التى استهلكتها السينما ..

الخلاصة أنها لم تعد تطيق زوجها ..

كانت المواجهـة عاصـفة ، وقـد ذكرت له عيوبه كلها .. قالت إنهـا راغبـة فى الحـرية لكنـه رفض بقـوة .. هناك مشاكل مالية لا أفهمها وصراع محامين .. هى تريد كل شىء ولن تتنازل ..

هكذا بردت الأمور بعض الوقت .. ربما لشهر أو شهرين .. لكنها ستلتهب ثانية طبعًا ..

مسكين هذا الفتى البائس ...

وتذكرت كذلك ما قاله لى وهو يترنح ثملاً :

ـ « ما هو المرض السابع ؟.. »

سابع ؟

قلت له فى صبر وأنا أساعده على الجلوس :

ـ « على قدر علمى لا يوجد شىء اسمه المرض السابع .. »

عاد يسألنى فى عصبية :

ـ « ما هو المرض السابع ؟.. »

يعرف الأطباء المرض الخامس جيدًا .. إنه خامس مرض ضمن مجموعة أمراض الطفولة التى تسبب الطفح ؛ ومنها الحصبة والحصبة الألمانية والحمى القرمزية ومرض معين يسبب تسلخ الجلد اسمه SSSS .. هناك مرض سادس يدعى الروزيولا ..

إن المرض الخامس مرض فيروسى تمامًا ، يشتهر عامة بمنظر الصفعة على الخدين .. يعنى أنت تشعر أن المريض تلقى صفعة على خديه قبل أن يراك .. مع طفح ينتشر ليغزو الجسم طبعًا ..

من هم أكبر سنًا يصابون بنوع من التهاب المفاصل الذى يعوق المشى ..

عامة هو مرض ليس خطيرًا والقليل من الراحة بالفراش يمكن أن ينهى المشكلة .. لكنه كالعادة يصير خطيرًا عندما يصيب مريضًا بالإيدز . هذا هو المرض الخامس باختصار وبالتفصيل كذلك ..

ماذا تعنيه بالمرض السابع إذن يا أخ برادلى ؟

ــ « لا شىء .. أرجو أن تنهى هذه الأمسية فأنا على غير ما يرام .. »

وهكذا وجدت أنه طردنى تقريبًا .. لم أطرد من بيوت كثيرة فى حياتى ، لكننى على كل حال يمكن أن أفسر الأمر بسكره وحالته النفسية التعسة ..

كلما رأيت رجلاً ثملاً تكلم كثيرًا جدًا ، ثم دخل فى بكاء طويل يمزق القلوب ، ثم نام كحجر ..

هكذا نهضت وناديت برنادت و ميورا وانصرفنا جميعًا شاكرين هذه المأدبة ..

* * *

كنت أتأهب للنوم ..

أطفأت الأنوار وتسللت للفراش فى هدوء حتى لا أوقظ برنادت .. المشكلة هى أن هذا البيت هش جدًا .. أخشاب غير ملتصقة ونافذة مفتوحة للأبد يتسلل منها ضـوء القمـر عبـر الستائر. لا تشعر بالخصوصية أبدًا .. ومن المعجزات أن الأسود لم تلتهم كل النيام ، واللصوص لم يسرقوهم ويذبحوهم ..

جلست فى الفراش أقرأ دعاء النوم ، هنا دق جرس الهاتف جوار الفراش .

هرعت أمسك بالوغد قبل أن يوقظها ..

ــ « من تريد ؟.. »

جاء صوت مميز يتكلم بالإنجليزية :

ــ « معذرة ... أنت د. علاء .. أليس كذلك ؟ » .

ــ « برادلى .. ماذا هنــالك ؟.. الســاعة الثالثة بعد منتصف الليل .. »

قال بصوت لاهث :

ــ « أنا مرهق ومريض .. لا أعرف من أتصل به .. نيرينا لا يرد .. لذا طلبتك فقد حصلت منه على رقم هاتفك أثناء السهرة .. معجــزة حقيقية أن يعمل الهاتف فى ساعة كهذه .. هل تعرف كيف تصل لى ؟.. »

ــ « لســت متأكــدًا .. دعــك مــن لغــة هــؤلاء القــوم الملاجاشية الــ ... »

ــ « لا مشــكلة .. كــل شخص فى هــذه الجزيرة يعــرف الفرنسية ... لو قابلت كلبًا لوجدته يفهم الفرنسية. استقل دراجة بخارية وتعال للعنوان .. إلخ .. »

يا للكارثة !.. لقد وقعت قدماى فى الشرك .. سوف أذهب لعنوان غريب بعد منتصف الليل فى مدغشقر ، و نيرينا ليس هنا .. لو لم أتعرض لسطو مسلح لاعتبرت هذه الجزر جنة . ثم ما موضوع الدراجة البخارية هذا ؟

لكنى كذلك طبيب وهو صديق .. يصعب أن أتخلى عنه ..

هكذا تسللت من البيت وأحكمت غلق الباب ..

السيناريو رقم 1 : استغث بالزوج وقل له إنك تموت .. سوف يخرج من البيت فانقض عليه فى الظلام واقتله ..

السيناريو رقم 2 : استغث بالزوج وقل له إنك تموت .. سوف يغادر البيت تاركًا زوجته وحدها .. فريسة سهلة ..

على الباب وقفت بضع لحظات فى الظلام أصغى لصوت القردة من بعيد ..

مشيت للشارع .. هنا سمعت هدير دراجة بخارية خلفى ..

لم تكن عصابة مسلحة ، لكنه شىء يشبه (التوك توك) فى مصر ، وكان التفاهم بالفرنسية سهلاً ... السائق يريد ذبحى وأنا أريد الذهاب لذلك العنوان ..

بعد دقائق كنا نقطع طرقات المنطقة المظلمة ، وكنت أعرف نهر بتسيبوكو لذا عرفت أننا قريبون من منزلى عندما كنا نمشى بمحاذاته . وفى النهاية توغـل بين مجموعـة مـن الفيلات ، واستطعت أن أرى معالم الفيلا التى كنت فيها منذ ساعات ..

ترجلت ونقدت الرجل أجره ، ثم اتجهت للباب أعبر الحديقة ، وقرعت الجرس .. بينما صوت طيور الليل يتعالى ..

فتحت لى الخادمة الأفريقية ولم يبد أى تعبير على وجهها ، كما لم تكن على وجهها علامات النوم برغم أننا فى الرابعة صباحًا. هذا بيت لم ينم فيه أحد بعد ..

دخلت مترددًا .. هنا سمعت صوت برادلى المنهك يطلب منى أن أدخل ..

هناك زجاجات فارغة على الأرض ورائحة خمر قوية . هناك مجلات متناثرة هنا وهناك وأحد المقاعد مقلوب .. ثمة جهاز تلفزيون مفتوح لكن لا صورة على شاشته .

وفى غرفة الجلوس التى كنا فيها منذ ساعات ، رأيت برادلى يجلس فى ضوء خافت ، ويتحسس بطنه ..

هل أنا أتخيل بسبب الضوء الخافت أم إن هذا الرجل تلقى صفعة قوية على وجهه منذ دقائق ؟

5ـ تفسـيرات ..

إن المرض الخامس مرض فيروسى تمامًا ، يشتهر عامة بمنظر الصفعة على الخدين .. يعنى أنت تشعر أن المريض تلقى صفعة على خديه قبل أن يراك .. مع طفح ينتشر ليغزو الجسم طبعًا ..

★ ★ ★

لما رأى نظرتى المندهشة ، قال برادلى :

ـ « اطمئن .. زوجتى لم تصفعنى لو كان هذا قد خطر لك .. »

كان جالسًا على الأريكة التى تذكرك بأثاث المصايف فى مصر ، وهو يلبس قميصًا مشجرًا على اللحم فتح أزراره كلها .. وكان غارقًا فى العرق ، ويبدو أنه جعل الخادمة تعمل له بعض الكمادات . بالإضافة لهذا كانت سماعة الهاتف جواره على الأريكة .. لقد أجرى بعض اتصالات أو حاول ذلك ..

رفعت عينى فوجدت زوجته (ربيكا) واقفة على باب الغرفة .. كانت تلبس منامة وحافية القدمين ، وقد عقدت ذراعيها على

صدرها وكانت عكس النور تمامًا فلم أر تعبير وجهها .. بقعة ظل لا أكثر ..

هززت رأسى محييًا ثم جلست على مقعد أمامه وتحسست يده بظهر يدى .. ليس محمومًا ..

قلت له :

ـ « بم تشعر بالضبط ؟.. »

حك جبهته وقال :

ـ « تنميل قوى .. كهرباء .. حرقة فى لسانى ومؤخرة حلقى .. دعك بالطبع مما تراه أنت .. إن وجهى يبدو كأنه محترق ... المرض قد صفعنى .. »

ـ « وهذه أول مرة ؟.. »

ـ « بل هى المرة السادسة .. »

ثم قال وهو يلهث :

ـ « يذكرنى جدًا بالمرض الخامس .. لذا أطلقت عليه المرض السابع .. نفس الأعراض تقريبًا .. »

جلست جواره غير عالم طريقة البدء .. طلبت من الخادمة أن تحضر لى أدوات الفحص ، فقست ضغط دمه وحرارته .. لم يبد لى أى شىء خطأ سوى منظر جلده وحالته العامة .. هذا محير فعلاً ..

فى النهاية قلت له :

ــ « هل تعتقد أنك أفضل ؟.. »

ــ « أعتقد هذا .. لكنى كنت آمل فى أن تهدينى إلى شىء .. كنت أبحث عن عين أخرى .. »

لم أكن عبقريًا فى الطب .. هذا الأحمق يعتقد أننى سأراه فأصيح : هذه حالة كلاسية من مرض جيرتسمان شترويسلر وعلاجها هو كذا وكذا ...

قلت له وأنا أنهض :

ــ « أعتقد أن هناك جزءًا هستيريًا نفسيًا لا بأس به هنا .. لا شك فى أن حالتك النفسية على غير ما يرام .. »

ابتسم ووضع عويناته التى كانت ملقاة جواره وقال :

ــ « هل سمعت عن هستيريا تسبب احمرارًا فى الوجه كأنه التهاب ؟.. »

ــ « سمعت عن مرضى يقرصون خدودهم لتحمر ، وسمعت عن مرضى يحرقون جلودهم لتلتهب ، ومريضات ينتزعن شعرهن من الرءوس فيما يدعى بمتلازمة رابونتسيل Rapunzil .. »

تذكرت أغنية شعبية من أغانى أفراح السويس :

جدعان حارة حارتنا .. اللى إنتى ساحراهم

باتوا حيارى حيارى .. وكمان سهارى .. سهارى

وتصف خدى العروس الجميلتين :

هما طبيعى طبيعى ؟ وإلا إنتى قارصاهم ؟

ثم تصف شفتيها :

هما طبيعى طبيعى ؟.. وإلا إنتى عاضاهم ؟

يبدو لى أن برادلى كان يقضى الوقت فى قرص خديه على الأرجح .



نظرت للباب فوجدت أن الزوجة قد رحلت .. دخلت لتنام على الأرجح . طبعًا هى خمنت أو عرفت يقينًا أن الرجل تكلم معنا كثيرًا هذه الليلة ، ومعنى هذا أننا نلنا شرف التصنيف كأعداء لها .. لن تسامحنا ..

نظرت لساعتى وأعلنت أننى راغب فى الانصراف ، لكنه أصر على أن يوصلنى للبيت بسيارته الصغيرة . . ونهض برغم اعتراضى وراح يزرر قميصه ويجفف العرق على جسده ..

قلت له :

ــ « حالتك لا تسمح بالخروج .. »

ــ « أنا بخير حال .. »

ثم أضاف الحجة التى لا يمكن أن أقاومها :

ــ « الفجر يقترب .. أن تكون غريبًا وحيدًا فى ساعة كهذه يعرضك لخطر كبير .. أعتقد أنه لابد من توصيلك .. »

غريب هذا .. لم يكن الخطر داهمًا عندما طلبت منى أن آتى لبيتك منذ ساعة . السبب طبعًا هو أنك كنت بحاجة ماسة لى لذا آثرت أن تعرضنى للخطر .. أنانية البشر تدهشنى أحيانًا ..

المهم أننى جلست جواره فى السيارة الصغيرة وأنا أرتجف من البرد .. هو كان يرتجف من الضعف ..

أدار المحرك وأضاء الكشافات .. قلت وأنا أنظر لمئات الحشرات التى تلهو فى الضوء وتتوهج :

ــ « برادلى .. ألم يخطر ببالك أن هذا تسمم ؟.. »



6ـ نهاية ليلة طويلة ..

حقًا لماذا لا نعرف الأسرار التى نصبو لمعرفتها ؟.. لماذا لم نكن طيورًا لنحلق ونرى ، ولا ثعابين لنزحف ونختلس النظر بين الشقوق ، ولا ذبابًا لنقف على الجدار ونتلصص ؟.. لماذا نحن لسنا أرواحًا لنعبر الحواجز ونعرف ؟

★ ★ ★

نظر لى برادلى طويلاً لدرجة أنه كاد يصعد بإطار السيارة على الرصيف المتهدم ، ثم استعاد التوازن وقال بصوت مبحوح :

ـ « هل تعتقد هذا ؟.. »

قلت مؤكدًا :

ـ « تنميل قوى .. كهرباء .. حرقة فى اللسان .. يبدو لى كأحد السموم العصبية .. »

غارقين فى الخواطر نرمق الليل .. هناك قطرات مطر بسيطة تسقط على الزجاج وتنحدر . ليست كافية لتحجب الرؤية لكنها

كافية لتشوهها .. لتملأ أعماقك بالحزن والشجن .. لتشعرك بأن السحب تبكى على حالك ..

قال لى :

ـ « بينى وبينك .. أنا أعتقد هذا بل أنا واثق منه . أردت أن تقول لى العكس .. تمنيت أن تقول لى العكس .. »

ـ « وما مصدر السم ؟.. »

راح يفكر ..

هناك سموم كثيرة تتصرف كأنها مرض مزمن . مرض يحير الأطباء لفترة طويلة ويشعرهم بأنهم حمير .. تسمم الرصاص مثلاً يأتى بحزمة عملاقة من الأعراض والعلامات فى كل أعضاء الجسم تقريبًا .. لابد من طبيب واسع الخيال ، أو أن ترى الخط الأسود المميز على لثة المريض . تسمم الزرنيخ بجرعات قليلة يحير الجميع ، وأنت تعرف معاناة نابليون بونابرت الطويلة مع الأطباء العاجزين عن فهم مشكلة معدته وتساقط شعره .. وفى النهاية شخصوا الأمر رسميًا أنه مصاب بسرطان معدة ، وما زالوا يقولون للأطفال إن نابليون كان يدس يده فى سترته ليكتم

ألم معدته .. الحقيقة أن البريطانيين كانوا يدسون له جرعات من الزرنيخ ..

لكن المشكلة مع برادلى لا تكمن فى نوع السم .. الحقيقة أنها تكمن فيمن يضعه له ..

هكذا قال هو أيضًا :

ـ « المشكلة هى من يدسه لى .. »

ثم قال بعد صمت طويل :

ـ « ربيكا طبعًا ... الخـادمة لا مصلحة لهـا فى قتلى ... لا أتعامل مع المافيا ولست ناشطًا سياسيًا يحاول دكتاتور أن يتخلص منه .. ولست ملكًا ينتظر الوريث موته ليحكم .. أنا مجرد زوج تحب زوجته واحدًا آخر !.. »

قلت فى بساطة :

ـ « ليس كل زوج تحب زوجته واحدًا آخر ، ضحية تسميم مؤكدة .. هناك زوجات يمقتن أزواجهن فى كل مكان ولا يدسسن لهم السم .. تصور هذا ؟.. »

ـ « أنت لا تعرف ربيكا .. »

كانت الفيلا التى أقطنها قد لاحت من قريب فهدأ سرعة السيارة وابتسم لى ..

قلت له وأنا أترجل :

ـ « إذن ما هو نوع هذا السم ؟.. »

ـ « لا أعرف .. »

ـ « هو سم عصبى .. وهو يوضع فى شىء تأكله أنت وحدك .. وبالتأكيد لم يدس لك فى عشاء الليلة وإلا لعانينا مثلك .. »

قال وهو يفتح لى الباب من جهته لأن المقبض تالف :

ـ « سوف أجرى بحثًا على شبكة الإنترنت .. لكنك توافقنى على أنه سم وليس مرضًا ؟.. »

ـ « لو لم يكن سمًّا ، فأنت قد ضمنت جائزة نوبل للعام القادم لأنك مكتشف (المرض السابع) .. »

ـ « أرجو أن تقوم بهذا لو هلكت أنا .. »

ونزلت من السيارة فابتعد فى الظلام ..

مشيت للفيـلا شارد الذهن .. كان الفجر يقترب وقد صار ضجيج الطيور يصم الآذان وهى تتبادل السباب ... لون الحياة صار أزرق شاحبًا واهنًا مع لسعة برد محببة ..

الأجمل ذلك التنميل فى رأسى بلا سم .. إن السهر طيلة الليلة يلعب دورًا مهمًّا هنا ... سوف يكون نومًا رائعًا ...

عندما اندسست فى الفراش جوار برنادت كانت قد بدأت تعى ما يدور .. سألتنى مغمضة العينين :

ـ « هل ظللت فى الحديقة كل هذا الوقت ؟.. »

قلت ساخرًا :

ـ « صدقى أو لا تصدقى .. كنت أنقذ حالة تسمم !.. »

لم تفتح عينيها ولم تندهش .. فقط تثاءبت وضمت ذراعيها على صدرها وقالت :

ـ « لابد أن هذه قصة طريفة ، لكن أرجو أن تؤجل سردها حتى الصباح .. »

ـ « حتى الظهيرة بالنسبة لى .. »

ونمت مطمئنًا إلى أنها لن تدس لى السم ... مسكين برادلى هذا .. إنه يعيش فى جحيم حقيقى فعلاً . لابد للمحارب من لحظة يضع فيها سيفه ودروعه ويسترخى وينام .. فمن يتصور أن نطالبه بأن يظل متوترًا لابسًا الدروع لأنه ليس فى أمان حتى فى داره وأثناء نومه ؟

★ ★ ★

فى بيت لا يبعد كثيرًا عن بيت برادلى ، وإن كان يبعد كثيرًا فى المستوى الاجتماعى جلس العم (فابريس) يشرب القهوة قبل الذهاب للعمل ..

كان يبيع الخضر فى السوق ، وهذا يقتضى منه أن يصحو قبل الفجر ليقابل (هاجا) ، ويبتاع منه البضاعة بسعر الجملة ،

ثم يحمل بضاعته على دراجة بخارية تشبه (التروسيكل) كما نعرفه نحن ، ويذهب إلى السوق حيث المساحة الضيقة المخصصة له والتى رسمها بالطبشور .

حاول أحدهم أن يضع بضاعته فى هذه المساحة منذ أعوام ، وحدثت مشـادة بالمـدى بينهـم . كانت العملية غير منظمة ، حتى جاء (أينا) العجوز وقرر أن يمنح المساحات حسب فرص متكافئة . هكذا وقـف كـل البـاعة فى صـف واحد ثم أعطاهم (أينا) إشارة البدء .. انطلقوا جميعًا يركضون بسرعة ، وظفر كل واحد بالمساحة التى بلغها قبل الآخرين ، أما فابريس المسن فلم يظفر سوى بتلك المساحة الضيقة على أطراف السوق لأنه بالطبع لا يجيد الركض ..

رشف المزيد من القهوة وراح يعبث فى أصابع قدميه .. وابتسم ..

زوجته العجوز مالالا نائمة تحلم وهو يكره أن يوقظها .. يشعر فى هذا انتقامًا لا أكثر ، فهو قادر على القيام بكل شىء .

دعها نائمة .. لقد عانت فى حياتها كثيرًا .. إنها تستحق بعض النوم فى الصباح إذن ..

وقف خارج بيته الضيق وتمطى ..

يعشق جو الفجر هذا ويعشق الأشجار ، ويعشق صوت صياح الطيور وأزيز الحشرات ..

لكنه ليس على ما يرام اليوم ..

هناك ذلك الشعور الغريب فى لسانه وحلقه .. لسانه مخدر تمامًا .. وأدرك فى جزع أنه يسقط من فمه عندما فتح شدقيه ..

عندما مد أنامله شعر بكهرباء خفيفة فى الأطراف ..

ما السبب ؟

كانت هناك وجبة صغيرة تناولها .. جلبتها له ابنته التى تعمل خادمة عند ذلك الطبيب الأجنبى .. النيوزيلندى . . إنهم يلقون بكميات طعام تكفى لإشباع جيش ، وقد كانت ابنته تستنقذ له بعض هذا الطعام ..

ليلة أمس جلبت له وجبة من السمك .. لم ترق له على كل حال ، لكنه أكلها .

منذ طفولته تعلم ألا يلقى بطعام أبدًا مهما كان مذاقه كريهًا ..

هل هى السبب ؟.. لا يعرف ..

7 ـ بعض السجقية ..

قالت لى برنادت :

ـ « اعتقادى الخاص هو أن ربيكا تحب زوجها فعلاً !.. »

أحب النساء البلهاوات حقًا .. هذا يشعرنا معشر الرجال بالتفوق ، ويعطيهن سحرًا خاصًا ...

قلت بلا مبالاة وأنا ألتهم البيض الممهوك أمامى :

ـ « أنت عبقرية فعلاً ... ناولينى الملاحة من فضلك .. لا سال .. لا سال .. »

ناولتنى الملاحة وهى تبتسم فى عناد وقالت :

ـ « أنت لا ترى هذا ؟.. »

فى غيظ نفضت الملح فتحول البيض إلى ملح تم رش بعض البيض عليه .. ألقيت بالملاحة جانبًا وقلت :

ـ « أوف .. تلف طعامى !.. اسمعى .. أنا ذو عينين وقد رأيت كيف تكره هذه المرأة القوطية زوجها وأصحاب زوجها

والأرض التى يمشى عليها زوجها ، وكانت تعاملك أنت بالذات بسماجة غريبة .. »

قالت برنادت وهى تذيب بعض السكر فى قدح القهوة :

ــ « أنتم لا تفقهون شيئًا عن المرأة .. هذه امرأة عاشقة .. لقد أحبت زوجها جدًا لكنها فوجئت بنمط الزوج المشغول المهتم بعمله ولا يعيرها اهتمامًا .. بدأ يعاملها بلا مبالاة وملل .. وهكذا ولدت العدوانية بينهما ، وعندما جاءا إلى مدغشقر كانت تشعر بخواء روحى شديد .. »

ــ « لهذا تحولت إلى سحلية ملطخة بالأصباغ .. »

ــ « هذا متوقع .. امرأة مضطربة نفسيًا تشعر أن زوجها لا يبالى بها لحظة .. »

ــ « قالت إنها تحب واحدًا آخر .. »

ــ « لم تقل .. هو قال إنها قالت وهناك فارق .. الرجال يكذبون أحيانًا كما تعلم .. هو يغار من هذا اللاتينى الوسيم لذا افترض أنها تخونه .. »

وضعت قبضتى تحت ذقنى على طريقة (دعينا ــ نسمع ــ أكثر) وقلت :

ــ « حسن .. وكل هذه القضايا بينهما والمحامون ؟.. »

ــ « كان هناك نقاش لكنه لم يصل للطلاق .. هناك جو من التهديد به لكنه لم يحدث .. المرأة التى تشعر أن زوجها لا يبالى بها تفعل أى شىء .. »

واتسعت عيناها مهددة فتجمد الدم فى عروقى .

قالت بلهجة مقنعة :

ــ « علاء .. تذكر أننى كنت أول من يرفض قضاء الأمسية مع تلك المرأة .. فلماذا تغير موقفى ؟.. إنها لم تدس لى أعشابًا سحرية فى العشاء لو خطر لك هذا .. فقط أنا لم أترك انطباعاتى الأولى تسيطر على للأبد .. »

غريب هذا الكلام !

ليست هذه أول مرة يجرب فيها المرء أن يسمع القصة من طرفين .. عندها تبدو القصة مختلفة تمامًا من كل طرف ، دعك من أن انطباعى الأول قد يكون خطأ ...

لو كانت (ربيكا) تحب زوجها كما تعتقد برنادت ، فمعنى هذا أن احتمال دس السـم معدوم .. وهنــاك احتمال آخر أن تكون برنادت حمقاء .. أنت تعرف أن كل زوجة تحكى لك مشكلتها مع زوجها تتحول إلى ضحية وتجعل الجميع يكون معها متعاطفين .. لربما سقطت برنادت فى ذات الفخ .. ومعنى هذا أن الزوجة متهمة بدس السم فعلاً ..

لن أعرف أبدًا ..

على كل حال لقد انتهت علاقتى بهذه القصة. أنا فى إجازة وما زال من واجبى أن أرى كل شىء فى هذا البلد خلال أسبوعين ، وليذهب برادلى للجحيم بمشاكله العائلية .. لست مكلفًا بحل مشاكل كل إنسان فى العالم ..

★ ★ ★

لم يذهب العم فابريس للعمل فى ذلك اليوم ..

ظل مكانه فى السوق خاليًا والقطط تعبث فيه وتتشاجر ..

كان فى المستشفى راقدًا على فراش متسخ ، وينظر للسقف باحثًا عن كلمات ..

المشكلة أنه متنبه تمامًا ويعى ما يدور حوله ، وحركته ليست محدودة .. لكن لسانه يؤلمه .. ذلك التنميل الشنيع .. كلما مد يده شعر بأن الكهرباء تخرج من أنامله ..

جلست زوجته العجوز مالالا جواره وراحت ترسم عليه علامة الصليب ثم فتحت الكتاب المقدس وبدأت تقرأ .. أصابه الهلع .. لا تبدئى طقوس الدفن يا امرأة .. أنا بخير .. فقط أشعر بأن أعصابى ملتهبة ..

وجوار الفراش وقف طبيبان من السود يتناقشان ...

حالته محيرة فعلاً .. إنه يتنفس وحجابه الحاجز يتحرك ... لا يوجد شىء غير طبيعى فى قلبه أو دورته الدموية ..

ما هو الطعام الذى أكله أمس ؟ الطعام الذى جلبته ابنته له ..

يبدو أنه كان يحوى بعض المأكولات البحرية أو الأسماك . .

هنــا كان الجـواب واضحًا برغم أنه غير مقتنع بتاتًا .. لقد كان السمك مسممًا فاسـدًا ، وعلى الأرجح هــذا أصـابه بداء الــ Botulism الذى يصيب من يأكل معلبات تالفة .. مرض

(السجقية) لو أردت أن تترجمه للعربية ، ومعناه أن السم العصبى الخارج من بكتريا الكلوستريديام قد دخل جسمه .. هذا يعنى شللاً فى معظم الأعصاب الدماغيــة . المريض يعجــز عن البلع أو تحريك العينين ويسيل لعابه بلا توقف .. على الأرجح يموت خلال ساعات ما لم يعطوه المصل الواقى .. طبعًا هو منسوب للسجق لأنه لوحظ أولاً مع السجق الفاسد ..

مصر عرفــت تسممًا رهيبًا بسبب الفسيخ الفاسد منذ أعوام ، وأصــاب داء البتيوليزم عــددًا كبيــرًا من الضحايا فى شبرا ، والكارثة هنا أن هذا حدث فى رمضان الذى تزامن مع شم النسيم .. أى أن من تسمموا كانوا من المسيحيين ، لأن المسلمين لا يأكلون الفسيخ فى رمضان . هكذا اتجهت كل الشكوك نحو الفسخانى الذى باع الفسيخ فى شبرا ، واعتقد كثيرون أنه مخطط إرهابى للفتنة الطائفية . طبعًا يمكنك تخيل وجه الفسخانى وهو يكتشف أن قضيته تحولت من قضية فساد أغذية إلى قضية أمن دولة !!

تعرف الممثلات جيــدًا هــذا السم كذلك ، لأن أطباء التجميل يستخدمونه لشل عضلات الوجه التى تحدث التجاعيد ، وهو

عقار البوتوكس الشهير Botox الذى تستخدمه الممثلات لمقاومة مخالب الزمن المحمومة .. وطبعًا بعد عدة حقن يتحول وجه الواحدة إلى قناع محشو بالقطن فاقد التعبير تمامًا ..

كــان الطبيبان يفــكران فى البوتيوليزم برغــم أن الصورة السريرية غير مكتملة ..

لكن كل شىء يشير إلى سم عصبى ..

السؤال هنا : لماذا لم يصب واحد آخر ؟.. ماذا عن ذلك الطبيب الذى أقام تلك المأدبة ؟.. لن يأتى أحد للمستشفى بأعراض مماثلة أقل أو أكثر ..

المشكلة الأخرى هى أن المصل المضاد للسم باهظ الثمن وغير موجود .. كيف نحصل عليه بسرعة ؟

هكذا بدأت الاتصالات مع (أنتاناناريفو) .. لابد أن هناك وحدة لقاحات لديها هذا المصل ..

وفى الوقت ذاته كان فابريس يكرر أنه بخير وأنه يريد العودة لداره .. طبعًا بلسان منمل لم يفهم أحد قط ما يريد قوله ولم يستجب أحد ..

كان يدرك يقينًا أنه لا يعانى التسمم بسبب ما أكله. كانت له فلسفة فى الحياة تعلمها من الفقر والجوع ؛ هى أن التسمم وهم لا وجود له .. لا أحد يموت بالأكل أبدًا .. الناس تموت بالجوع فقط . وكان دليله على هذا الخنازير والقطط والكلاب التى تأكل القمامة والطعام الفاسد طيلة الوقت فلا تمرض أبدًا .. بينما هو قضى معظم حياته مريضًا بسبب الجوع ، ولو ظل هنا فلسوف يفقد مكانه فى السوق ويعود للجوع ثانية ..

أخرجونى من هنا يا بلهاء ..

لكن الصوت كان غير مفهوم ، ولم يكن فى جسده من القوة ما يسمح له بأن ينهض ويرحل ..

8ـ حشـــرة حسناء ..

بالنسبة لعالمة البيولوجيا (ديبورا جودفرى) كانت مدغشقر هى الجنـــة .. بالضبط الجنـــة برغم أنها لم تر الجنة الحقيقية طبعًا ..

أولاً هى كانت ترى الجمال فى كل صوب هنا ، وتهزها هذه الطبيعة البكر النضرة .. ثانيًا كانت البلاد بحكم كونها جزيرة أقرب لمحمية طبيعية .. لا شك أن داروين شعر بهذا الشعور عندما رأى جزر جالاباجوس .. كل نبات هنا غريب .. كل حشرة عجيبة .. حتى القردة تثير دهشتك ..

كان هنا حشد من العلماء والمصورين الذين يعيشون أجمل أيام حياتهم ..

(ديبورا) فى الأربعين من عمرها ، لا تعنى بجمالها بتاتًا ولا تهتم به ، برغم أنك تدرك على الفور أن لديها كنزًا منه ..

الحقيقة أن هذه اللامبالاة بالذات كانت تعطيها سحرًا أكيدًا ، خاصة عندما تراهـــا تلبس قميصًا (كاروهات) غير مهندم ،

وتدس قدميها فى حذاء غليظ كأحذية الرجال ، وفى فمها لفافة تبغ لا تفارقها إلا نادرًا .. فقط عندما تخشى أن تنفر من رائحتها الحشرات .. ولم تكن تعامل أنوثتها بأى نوع من التدليل .. كانت تجلس على الأرض وفى الوحل ، وكانت تمسك بين أناملها بحشرات بشعة تثير رعب النساء فى كل العالم ..

كانت تعيش معظم حياتها فى توامازينا ، وهى بلدة ساحلية صغيرة ، لكنها لأسباب عدة كانت تقضى بعض أشهر فى هذه المنطقة قرب (أنتاناناريفو) ..

كانت تركب دراجتها الهوائية كعادتها ، وهى تحمل على كتفها الشبكة ومعها حقيبة بها المرطبانات الزجاجية وقطع الشمع ومادة السيانور ... هذه هى ثياب العمل ..

عندما مرت أمام دارنا توقفت للحظة ..

هل هناك ملامح كندية ؟.. لم أسمع عن هذا من قبل ، لكنها رأت برنادت فعرفت على الفور أنها كندية .

كنا نقف خارج الدار مع نيرينا نتكلم ، وهو يضع بعض الحاجيات فى سيارته الجيب استعدادًا للنزهة التى يزمع أن نقوم بها معه .. كان جدول اليوم حافلا ...

توقفت العالمة بدراجتها وضحكت لبرنادت ضحكة مشرقة ..

ــ « كندية .. بالتأكيد !.. »

ربما عرفت هذا من اللكنة التى تشوب لغة برنادت الفرنسية .. لا أعرف بالضبط . غير أن ديبورا كانت ذات ثقافة إنجليزية .. المهــم أن التعارف تم بيننا . شخصية ظريفة فعلاً ويسهل أن تحبها. مطلقة كالعادة وإن كانت أسباب الطلاق متحضرة تمامًا تتلخص فى أن زوجها السابق لا يستطيع مغادرة كندا بسبب ظروف عمله ، وهى مضطرة لمغادرة البلاد للسفر إلى مدغشقر .. عملها ..

وعدتنا بأن تقوم بزيارتنا فيما بعد وانصرفت ..

قالت لى برنادت وهى تصعد لتركب السيارة الجيب :

ــ « لا تنكر أن الكنديين من أظرف الناس فى هذا العالم .. »

قلت بلا مبالاة :

ــ « غريب هذا .. كنت أعتقد أنهم المصريون .. »

وجلست جوارها فى السيارة بينما قام نيرينا بتشغيل المحرك ، وسألنى قبل أن ينطلق :

ـ « هل ترى أن نمر على برادلى ؟.. لم أره منذ مرض كما تقول أنت .. »

قلت وأنا أنظر لساعتى :

ـ « أعتقد أن هذا لطيف ولن يعطلنا كثيرًا ... فقط سيفسد مزاجنا لهذا اليوم لو كان قد مات .. »

ـ « لا أعتقد أنه من النوع الذى يموت بسهولة .. »

هكذا انطلقت السيارة نحو بيت برادلى الذى زرته من قبل مرتين ..

★★★

مرت السيارة فى الشارع الضيق الذى كانت فيـه فيلا برادلى الصغيرة ، وهى تشق طريقها بين الوطنيين الـذين يتسوقون ولا يبتعـدون عن السيارات .. والأسوأ أن حشـدًا من الأطفال حاصرنا طالبين (دولار) وهى اللفظة الإنجليزية الوحيدة التى يعرفونها .. أو يطلبون (أريارى) وهى العملة المحلية ..

هنا فوجئنا برؤية العالمة ربع الحسناء على دراجتها ..

إما أن لياقتها عالية جدًّا ، أو أن هناك طرقًا مختصرة للغاية هنا .. دعك من أنها صدفة عجيبة فعلاً ، لكنها كانت هناك بالفعل تلتهم ثمرة نارينج كبيرة وتثرثر مع إحدى النساء ..

لما رأتنا لوحت بكفها ضاحكة .. ثم عادت تواصل الكلام مع المرأة ..

دقفنا باب برادلى فاطمأننا إلى أنه بخير ..

ـ « كيف حال مرضك السابع ؟.. »

قال ضاحكًا :

ـ « المرض السابع يتحسن بالكامل بين الهجمات .. أى أننى سأمضى يومين بخير وبعدها تعود الأعراض .. »

ـ « هل أنت واثـق أنك لا تتكلم عـن المـلاريا أو الحمى الراجعة ؟.. »

قال ضاحكًا :

ـ « بالطبع لا .. هذه الأمراض لم تعد تؤثر فىَّ بتاتًا .. يخيل لى أننى لو أصبت بالملاريا لكنت فاشلاً .. »

اتجهنا للخارج بعد ما اطمأننا عليه . لم أجسر على سؤاله عن زوجته .. ما زلت لا أملك وجهة نظر محددة بصددها : شيطانة تسمم زوجها أم ضحية بائسة ؟.. ما أعرفه يقينًا هو أننى سأكون شاهدًا مفيدًا للشرطة لو مات برادلى بأعراض غامضة ..

كنا نعبر الحديقة عندما فوجئت بتلك العالمة ديبورا التى قابلناها كثيرًا اليوم ..

كانت راكعة على ركبتيها وسط التراب وهى تلتقط شيئًا ..

لما رأتنا قالت فى حرج :

ـ « آسفة لهذا التعدى على أملاك خاصة .. أعتقد أن أخذ حشرة أو حشرتين من هنا لن يسبب مشكلة ولا يعتبر سرقة .. »

قالت برنادت وهى تنحنى جوارها لتلقى نظرة :

ـ « ما هى الحشرة المهمة لهذا الحد ؟.. »

كانت ديبورا تمسك بمرطبان صغير ، وفى اليد الأخرى تحمل جفتًا تمسك به حشرة صغيرة .. وقالت :

ـ « هذه .. »

نظرت إلى الحشرة التى تمسك بها .. خنفسة رائعة الجمال فعلاً ، وتبدو كأنها تحيط خصرها بحزام ساتان أزرق لامع .. هناك خنافس جميلة حقًا ، أى أن المثل القائل : « خنفسة شافت ولادها على الحيط .. قالت لولى ملضوم بخيط .. » ليس خرافيًا تمامًا ...

قالت ديبوراه وهى ترمق المرطبان فى الضوء :

ـ « خنفسة الكوريسين .. من الصعب أن نراها هنا .. لكنها موجودة بكثرة فى غينيا الجديدة وغابات المطر فى أمريكا الجنوبية .. »

قلت فى ملل :

ـ « هل هذا رائع ؟.. »

ـ « بالنسبة لى نعم .. »

ومن الواضح أنها وجدت الكثير فعلاً .. بالنسبة لى لا توجد فوارق هائلة بين الحشـرات وبعضـها .. هى إما ذبـاب أو

صراصير .. وكلها قذرة وكلها تموت بالشبشب .. لا أعرف فارقًا هائلاً بين هذه الأنواع ..

يجب أن أخبر برادلى إن هؤلاء القوم سيحولون حديقة داره لمحمية طبيعية . عليه أن يأخذ الحذر ..

هكذا حييناها ورحلنا ، أما هى فظلت فى مدخل الحديقة طويلاً تنقب فى الأرض ..

قالت برنادت وهى تركب الجيب :

ـ « يمكنك بسهولة أن تقول إنها مجنونة .. فعلاً من لا يفهم يجد أن الأمور غريبة مريبة فعــلاً .. امرأة جميلة تبحث فى التراب بهذا النهم .. تبحث عن خنفسة .. »

قلت لها :

ـ « كان يونج العالم النفسى يقول إن المجنون والأديب يزوران نهر الجنون معًا .. لكن الأديب يعود أما المجنون فلا .. يبدو أن هذا ينطبق على العالم .. »

ولم نكن نعرف أن ديبوراه تتعرض لخطر أكبر مما حسبنا ..

9 ـ نــوبــة أخــرى ..

فى التاسعة مساء توفى العم فابريس ..

لم يستطع أحد فهم المشكلة .. فقط كان هناك احمرار شديد فى خديه برغم أن لونه الأسود يحجب هذا اللون ..

عجز عن الكلام وراح اللعاب يسيل من جانب فمه بلا توقف ، ثم إن لونه بدأ يزرق ..

ركض الطبيب المناوب ووضع على أنفه قناع الأكسجين ، لكن الرجل لم يكن يتنفس .. عضلاته التنفسية لا تعمل جيدًا .. وقد أدرك الطبيب برغم قلة خبراته أن الأمر يحتاج إلى جهاز تنفس صناعى ..

هرع يطلب طبيب تخدير على الهاتف .. أطباء التخدير سحرة ويعرفون كيف يستعيدون من يسقط فى هذا الأخدود المخيف ... إنهم يجيدون التنفس الصناعى والإفاقة و ... و ...

لا أحد يرد ..

هكذا راح يضرب الشيخ على صدره ليجرى له تدليكًا للقلب. بالطبع هو ســاذج معــدوم الخبرة لأن زنبرك الفراش يمتص الصدمات كلها .. لابد من وضعه على الأرض ..

فى النهاية أدرك أنه يضيع الوقت سدى ..

لقد مات العم فابريس ..

لن يبيع أحد الخضر فى مكانه فى السوق غدًا ..

وبعد قليل ظهر الطبيب الأكثر خبرة فتحسس نبض المتوفى ووضع السماعة على قلبه. أكد خبر الوفاة فى أسى ..

ـ « ما سبب موته ؟.. »

فكر الطبيب قليلاً ثم قال :

ـ « بصراحة . لا نعرف .. الموضوع كما هو واضح يتعلق بسم نافذ للجهاز العصبى .. فى رأيى أنها حالة من البوتيوليزم نتيجة لأكلة سمك فاسد .. هذا هو التفسير الوحيد الممكن .. »

ـ « وكيف نعرف ؟.. »

ـ « لن نعـرف لأن أهله لن يقبلـوا التشريح .. اعتبر هذه الحالة لغزًا آخر من ألغاز الكون .. »

ورفع الملاءة ليغطى وجه الشيخ المعذب ...

يمقت هذه النظرة الشاخصة المحملقة لدى الجثث .. إنها توتر أعصابه فعلاً ...

★ ★ ★

عدت فى المساء مع برنادت ..

كنا منهكين وقد قضينا اليوم ندرك كم أن مدغشقر رائعة ، لكن أهلها ليسوا لطفاء جدًا ..

حاولت مرارًا أن أعرف من نيرينا تكلفة إقامتنا لكنه يرفض بقوة .. طبعًا لابد أن أقنعه بأى طريقة .. لا أقبل دعوة مجانية لزوجتى بلا مناسبة .. أعرف أنه نبيل وكريم لكن هناك مسائل شرقية لها قوة السلاح ..

كانت برنادت جائعة جدًا برغم أننا تناولنا العشاء ، وهى علامة خطرة .. ليس معناها أنها تحولت لغول ، لكن معناها أن بطنها والجنين بدءا فى الهبوط .. تحسن تنفسها وتحسنت شهيتها .. أى أن الوقت قريب جدًا جدًا ..

هكذا نزلت لمتجر قريب وابتعت لها بعض أرغفة الخبز والجبن .. هى كذلك مولعة بالبطاطس المقلية لذا ابتعت لها بعضها ..

لكننى عندما عدت للفيلا الصغيرة وجدت أن الهاتف يدق ..

رفعت السماعة فوجدت أنه برادلى .. كان يتألم كالعادة ويطلب أن أذهب إليه ..

لقد صار هذا مملاً ...

هكذا تركت الطعام لبرنادت ووعدتها بأن أعود سريعًا .. ثم خرجت لأستقل أول (توك توك) وجدته .. وانطلقنا نحو فيلا برادلى . فيلا برادلى حيث يتعالى صياح الطيور فى الحديقة قرب المساء .. لماذا لا تنام الطيور إلا بعد عمل كل هذه الضوضاء ؟

على الباب قابلت تلك الزوجة (ربيكا) وكانت قلقة كما بدا لى ، وفى الداخل وجدت برادلى على الفراش هذه المرة .. بالفعل كانت الصفعة إياها واضحة على وجهه .. وكان يحاول الكلام بصعوبة ..

جلست جواره وربت على رأسه وقلت :

ــ « نفس المشكلة يا براد .. »

قال بصعوبة بالغة :

ــ « التنميل .. التنميل .. وآلام فى كل المفاصل .. »

أخرجت مفكرة صغيرة وكتبت اسم حقنة مسكنة .. كتبت الاسم العلمى طبعًا لأننى لا أعرف أسماء الأدوية التجارية هنا. ثم طلبت من الزوجة أن ترسل الخادمة لتجلبها لى.

ــ « لا تتركنى يا علاء .. »

ــ « لن أفعل .. »

هذا الأحمق يعتقد أننى سأقضى بقية حياتى هنا . ربما أبنى كوخًا أقيم فيه كذلك. لكنى بالفعل لا أعرف كيف أتخلص منه .. لن أتخلص منه إلا لو تحسن أو مات ..

قلت له مفكرًا :

ــ « براد .. ألا ترى أنه من الواجب أن تذهب للمستشفى ؟.. »

ــ « لا .. لا مستشفى .. لن يفقهوا شيئًا هنا .. أنا لا أثق إلا فى أطباء وطنى .. أريد العودة إلى نيوزيلندا .. »

ــ « دخول المستشفى سيمنع محاولات تسميمك .. »

ــ « سوف أكون أكثر حذرًا .. »



بعد قليل دخلت الزوجة حاملة المحقن والحقنة ، فقمت بتعبئتها وحقنت برادلى . أعتقـد أنه بدأ يهدأ أو أن تأثير البلاسيبو بدأ يعمل ..

نهضت واتجهت للباب ..

لحقت بى هناك ..

أغلقت الباب حتى لا يسمعنا برادلى .. وعقدت ذراعيها على صدرها وقالت :

ــ « وبعد ؟.. »

نظرت لها فى غيظ ..

فعلاً مع كل هذه الثقوب فى شفتيها وفى لسانها وغضروف أنفها .. ومع هذا الطلاء الأسود فى كل مكان تبدو لى مقززة بطريقة غريبة .. لو كانت تريد أن يتعلق بها زوجها فقد فشلت تمامًا .. الآن أفهم بوضوح مصطلح (الرعب القوطى).

قلت لها وأنا أرتدى سترتى :

ــ « بعد ماذا ؟.. »

ــ « ماذا سنفعل مع هذه النوبات المتزايدة ؟.. »

ــ « أريد أن يذهب للمستشفى لكنه يرفض .. »

ــ « هل تعتقد أنه يموت ؟.. »

قلت فى ضيق :

ــ « لا أعتقد أى شىء .. »

مدت يدها تحيط بعنقى .. المخالب السوداء على جلدى .. وقالت فى شىء من لطف وعيناها تلمعان :

ــ « أنت تعاملنى بقسوة منذ اللقاء الأول .. »

نظرت لها فى رعب .. إذن هذه هى اللعبة هذه المرة .. العبث بى لمجرد أن تؤذى زوجها بشكل ما .. هذه المرأة شيطان وبرنادت حمقاء فعلاً .. برنادت طفلة ساذجة لا تفقه شيئًا ..

تراجعت مع شهقة كأننى بالفعل وجدت صرصورًا على ياقة قميصى ..

كانت المرأة الأفعى تنظر لى فى كراهية كأنها حية رقطاء ..

أعرف هذا الجزء وسوف يكون مؤلمًا لى بشكل خاص ، إنها سوف تستعمل تعبيرات على غرار : هل تتصور أيها الحقير أننى يمكن أن أميل لك ؟.. إن الطراز الذى يروق لى هم أسيادك و ... و ... قلة أدب من هذا الطراز ولا مفر من ذلك. هذا الطراز لا يغفر أن يُرفض أبدًا .. ولسوف أجد نفسى فى مشكلة لأننى أتمنى أن أصفعها فلا أقدر ..

قلت لها قبل أن تتكلم :

ــ « اسمعى .. القصة كلها واضحة .. »

ــ « أى قصة ؟.. »

تراجعت للباب حتى أفر بمجرد أن ألقى قنبلتى :

ــ « برادلى يعرف ما يحدث ... لا أحد يستطيع خداع طبيب فى قضية طبية .. »

قالت كأنها تبصق :

ــ « عم تتكلم ؟.. »

ــ « برادلى يعرف أنك تقومين بتسميمه .. أنا أخبرت كثيرين بذلك ولو حدث له شىء فلسوف تمرحين كثيرًا مع الشرطة .. والآن هلا أسديت لى خدمة وقلت لى ما اسم هذا العقار الساحر ؟.. »

اتسعت عيناها أكثر .. توقعت أن تطير فى الهواء لتنشب أنيابها فى حنجرتى ...

قالت وهى تضغط على أسنانها :

ــ « أنت .. أنت أيها الخنزير .. ما هذا الذى تقول ؟.. »

هناك احتمال آخر خطر .. اللعبة الأنثوية الشهيرة أن تصرخ مستغيثة بزوجها لأننى أتحرش بها . أقدم لعبة فى التاريخ منذ عهد سيدنا يوسف عليه السلام .. سوف أحرص على أن تقد قميصى من دبر .. لو قدته من قبل لكانت مصيبة ...

يجب أن أرحل بسرعة ..

قالت وهى تتجه نحوى ببطء :

ــ « أنت أحمق .. كلكم حمقى .. ظننت أنك ستتهم السمك .. السمك اللعين الذى يعده !.. »

10 ـ وجبة الموت ..

نعم يا برنادت ..

أعرف أنك موشكة على النوم ، وجفناك يختلجان في جذور عنقي وأنت مسندة رأسك هناك .. ثمة شيء في المرأة الحامل يجعلها طفلة في حاجة إليك ، وفي الوقت ذاته تشعر بأنك طفل في حاجة إليها .. علاقة معقدة جدًا ..

أعرف أنك موشكة على النوم لكن لابد من الكلام ..

عندما تكلمت ربيكا عن السمك ، دق هذا جرسًا في ذهني ..

ذهبت إلى مقهى إنترنت وأرسلت رسالة لآرثر شيلبي في وحدة سافاري بالكاميرون .. كان رده بعد نصف يوم سريعًا ودقيقًا كالعادة .. لو تخلصنا من كل الفقرات التي يمتدح فيها نفسه ويصف كم هو عبقري وجميل ، لوجدنا أن الرسالة مفيدة فعلاً .. لقد طرح احتمالات لم تجل بذهني من قبل .. لله درك أيها الأمريكي المتبختر الثرثار إذن ...

إن برادلي مولع بالطهي .. ومن ضمن ما يجرب طهيه هذه الأكلة اليابانية اللعينة التي لم أتذوقها ليلة تناولنا العشاء عنده .. زوجته لفتت نظري لهذا .. هذه السمكة يحصل عليها من متجر أسماك خاص هنا. يبدو منظر الطبق كأنها شرائح رقيقة من التونة مرصوصة على شكل زهرة. اسمها سمكة (الفكهة Puffer Fish) .. هذه السمكة مميزة جدًا في أنها قادرة على أن تنتفخ عندما تشعر بالخوف لتصير كبالون تحيط به الأشواك من كل جانب ، وهذا البالون قوي جدًا لدرجة أنه يسمح لرجل ضخم بأن يقف فوقه . عندما تطمئن تعود لحجمها العادي .

هذه السمكة معروفة بأنها سامة جدًا .. وقد كادت تقتل جيمس بوند في نهاية رواية (من روسيا مع حبي) لأيان فلمنج. المشكلة أن إعدادها خطر جدًا .. عملية مخاطرة بالحياة لا شك فيها ، ولهذا لا يسمح لأي طاه بأن يعدها في اليابان إلا بعد تدريب شاق يمنحه ما يقارب درجة الدكتوراه. طباخ هذه الوجبة يمر بامتحانات عسيرة ويجتاز عدة دورات تدريبية ، وبرغم هذا هي تقتل مائة ياباني سنويًا . هل تتوقع أن ينجح برادلي فيما فشل فيه اليابانيون أنفسهم ؟

سم هذه السمكة يدعى (تيترودوكسين) وجرعته القاتلة هى مليجرام واحد فقط .. أى ما يكفى لتغطية رأس دبوس. إنه سم عضلات فعال جدًا ولا علاج له ، يفوق السيانيد بألف مرة. وسر قوته يعود إلى أنه يسد مجارى الصوديوم فى الخلية فى الموضع المعروف بـ (الموقع واحد). بالتالى ينتهى ميكانيزم دخول الصوديوم وتشل العضلة ، وقد لوحظ أنه لا يلعب الدور ذاته مع عضلة القلب ، فلم تحدث حالات توقف قلب مصاحبة للتسمم.

سألتنى برنادت وهى مغمضة العينين :

ــ « هل يسبب احمرار الخدين ؟.. »

قلت فى حيرة :

ــ « بصراحة لم أسمع عن هذا ولم أقرأه .. لكنه وارد ... »

قالت لى من مكانها الدائم فى عنقى :

ــ « هل تعتقد أن الزوجة تدس السم لزوجها ؟.. »

ــ « لا .. هذا الاحتمال ينفى ذلك .. مجـرد خطــأ فى الطهى يرتكبه برادلى مرارًا .. ومن الغريب أنه يتغلب عليه فى كل مرة .. لابد أنه كون مناعة لا بأس بها .. »

قالت شاردة الذهن :

ــ « هذه نقطة مهمة ضد رأيك .. من الواضح أن أحدًا لم يفلت من هذا التسمم قط حسب كلام شيلبى .. »

إن اليابانيين يحبون أكل هذا النوع من السمك ، لكن مع المجازفة بالموت (فرصته نحو 60%) .. وهو موت شنيع يصاحبه شلل وعجز عن الكلام وضيق تنفس. يرقد المصاب عاجزًا عن النطق أو الحركة وإن كان يدرك تمامًا ما يحل به. أى إنه واع تمامًا حتى اللحظة الأخيرة وهذا شىء بشع.

يأكل اليابانيون هذا السمك ليس لمذاقه الطيب فحسب بل لإظهار شجاعتهم فى تحدى الموت. أى جزء من الكبد أو المبيض يبقى أثناء الإعداد معناه الهلاك .. ويقول المثل اليابانى : « من يأكل الفكهة أحمق ، لكن من لا يأكلها أكثر حمقًا !.. » وقد مات بسببها أعظم ممثلى اليابان وهو (متسوجورو باندو) عام 1975.

الطبق نفسه شكله مغر جدًّا كما قلت لك ، فهو شرائح نيئة من السمك يعـدها الطاهى على شـكل زهرة أو طاووس .. والوجبة غالية جدًّا.

يعرف الطباخون المحترفون ثلاثين خطوة لابد من اتباعها عند إعداد هذه الوجبة ، كأنهم بصدد الإقلاع بطائرة. لابد من إزالة الأمعاء والكبد والجلد والعينين والمبيضين. ثم يبدأ تقطيع اللحم الأبيض البراق إلى شرائح رقيقة تغسل بعناية. يتم غمس الشريحة فى مزيج من الصلصة والفجل والفلفل قبل ابتلاعها ، ويقال إن اللحم يحدث تنميلاً خفيفًا لدى أكله .

قالت برنادت :

ـــ « كنت أحسبه شيئًا مثل السوشى .. »

ـــ « لا .. هو أقرب للمزاج اليابانى عامة ... أما عندما يجرب الغربيون ممارسة هذه اللعبة فهم يصطدمون بجبل وعر. عام 1996 تسبب هذا السم فى إصابة ثلاثة طهاة فى الولايات المتحدة تعاملوا مع سمك مستورد من اليابان. مبرر الاستيراد واضح وهو أن سعر الوجبة الواحدة فى الولايات المتحدة يبلغ 400 دولار . ظهرت الأعراض خلال 3 دقائق إلى 20 دقيقة ، وبدأت بتنميل فى الفم وجانب اللسان ثم دوخة وإرهاق وصداع وانقباض فى الصدر والحنق ثم قىء . الموت يحدث خلال ست إلى 24 ساعة ، ويكون نتيجة لشلل الجهاز التنفسى . المشكلة هى أن هذا السم يتحمل الحرارة ، أى إن الطهى لا يؤثر فيه ... »

صفرت برنادت بشفتيها ..

يبدو أن هذا هو الجواب الصحيح فعلاً ..

لم أكن أعرف قصة العم فابريس .. ولو سمعتها لزادت اليقين لدى . هو أكل طبقًا مسروقًا تبقى من ذلك العشاء ، والطبق كان يحوى مأكولات بحرية .. هذا هو ما جعل أطباء المستشفى يفترضون أنهم يتعاملون مع حالة بوتيوليزم ..

ثم أمسكت بالورقة التى كتبتها من خطاب شيلبى ، وقرأت :

ـــ « أول من وصف هذا السم هو الكابتن جيمس كوك الذى أكل بحارته نوعًا غريبًا من الأسماك ثم أطعموا الباقى للخنازير .. أصيبوا بدرجة خفيفـــة مـــن التسمم لكن الخنازير ماتت كلها ، وقد تم فصل السم عام 1901 ، وتمكن عالم يابانى من تصنيعه فى المختبر فى السبعينات ... »

ثم أضفت وقد رسمت ابتسامة شريرة على وجهى :

— « دعك من أنه يصنع الزومبى .. »

— « هل تخرف ؟.. »

— « لا أجد مزاجًا للتخريف هذه الليلة .. إنه من السموم المهمة فى جزر الكاريبى لصنع الزومبى ، وعن طريقها يدخل الشخص فى غيبوبة يزعم بعدها الساحر أنه تحول إلى زومبى . وهناك رجل شهير يدعى (كلارفيوس نارسيس) تم دفنه حيًا فى هايتى بسبب تأثير هذا السم . .. »

قالت غير مصدقة :

— « هذا لا يصدق .. »

قلت لها وأنا أغمض عينى بدورى :

— « فى الصباح سوف أخبر برادلى بكل شىء .. زوجته بريئة .. هناك حمار واحد فى هذه القصة هو برادلى نفسه .. »

11 ـ ليلة بيولوجية ..

أخبرت برادلى بهذه القصة وهذه النظرية ..

كنا فى سيارته وهو عائد من العمل فى المستشفى .. يبدو أنه منتدب هنا أو شىء من هذا القبيل ، وقد راح يصغى لى وهو يقود السيارة فى شوارع المنطقة المزدحمة ، ونزل مرة أو مرتين ليبتاع بعض أشياء ..

قال لى بعد ما سمع نظريتى :

— « كل هذا جميل ومنطقى .. لكنه يبرئ زوجتى .. »

قلت فى غيظ :

— « كنت أحسبك تبحث عن الحقيقة ، ولا تبحث عن اتهام زوجتك بأى ثمن .. »

ابتسم فى تعب وقال :

— « ليس عندما تقترح هى هذه الفكرة .. كأنها تعد المسرح لما سيحدث .. الاعتراض الثانى هو أننى لا آكل سمك الفكهة

يوميًا ... هذه أكلة باهظة الثمن والسمك نفسه صعب الحصول عليه . لا تقدم هذه الوجبة إلا فى احتفالات نادرة وعندما نكرم ضيوفنا .. يمكننى أن أعد لك نوبات كثيرة أصبت بها وأنا لم آكل سمك الفكهة .. دعك كذلك من أننى بارع فى إعدادها وملم بالخطر الذى يهدد آكلها .. أنت لا تعرف أننى كنت فى اليابان وتعلمت إعداد هذه الوجبة من طاه يابانى عظيم .. »

ثم هرش رأسه مفكرًا وقال :

ـ « ثم إننى لم أسمع عن واحد نجا من التسمم بمادة (تيترودوكسين) .. لاحظ أن هذا موضوع يهمنا فى طب المناطق الحارة .. »

توقفت السيارة فترجلت .. كنا أمام دارى المؤقتة .. قلت له :

ـ « على الأقل تأكد من أنك لن تأكل سمك الفكهة فى الفترة القادمة .. على الأقل نكون قد أغلقنا هذا الباب .. »

ـ « أعدك بهذا .. »

نحيل رقيق له ملامح أنثوية مذعورة ، وظريف فعلاً لكنه أحمق .. والأسوأ أن يكون كذوبًا كما تعتقد برنادت .. ماذا نعرف عن بعض وماذا نعرف عن أنفسنا ؟.. لا شىء .. فعلاً لا أعرف إلا القليل عن الطبيب الشاب الملتحى المدعو علاء ، وأخشاه كثيرًا ..

★ ★ ★

(ديبورا جودفرى) قضت ليلة مثيرة جدًا ..

كانت جالسة فى شقتها الصغيرة المستأجرة فى فترة زيارتها ، التى صارت خليطًا غريبًا من الفنون الأفريقية .. رماح معلقة وتماثيل .. وفنون غربية .. هناك صور كبيرة لموديليانى وشاجال .. وموسيقا شتراوس تنطلق من جهاز الكمبيوتر ، وهى جالسة إلى منضدة صغيرة عليها مجهر .. مجهر متصل بالكمبيوتر بحيث ترى الصورة رقمية ضخمة على شاشة الجهاز مباشرة .. هناك الكثير من التقنيات المعقدة التى تتعلمها يومًا بعد يوم .. هناك طرق لا حصر لها لمعالجة الصورة ...

هناك كوب من القهوة ولفافة تبغ مشتعلة ، وهناك مفكرة عليها رسم لا بأس به لحشرة جميلة .. هى تلك الخنفسة ..

هناك بقايا وجبة من السمك فى طبق .. مما يخبرك بأنها لم تكن تهتم كثيرًا بالتدبير المنزلى ..

هناك كذلك طائران رائعا الجمال موضوعان فى قفص صغير أنيق .. الحقيقة أنها ظفرت بكنز بيولوجى رائع هذا اليوم .. ما حدث هو أن طائرًا وغدًا أفلت وقبل أن تفهم ما يحدث كان قد التهم اثنتين من تلك الخنافس فى تلذذ جهنمى .. مرة أخرى وسوف ينتهى رصيدها منها ...

عادت إلى الكمبيوتر وراحت تتأمل الحشرة تحت المجهر ..

خنفسة الكوريسين .. من الصعب أن تراها هنا .. لكنها موجودة بكثرة فى غينيا الجديدة وغابات المطر فى أمريكا الجنوبية ..

كيف جاءت هنا ؟

هى تعرف أن برادلى صاحب الفيلا الذى وجدت الحشرة فى حديقته من نيوزيلندا .. أى إنه على بعد خطوات من بابو غينيا .. ربما ذهب هناك ولربما أحضر معه بعض هذه العينات .. هذا هو التفسير الوحيد الذى يخطر لها الآن ..

إن هذه الخنفسة منتشرة فى العالم كله على كل حال ، لكن هذا الطراز بالذات لا يوجد فى مدغشقر .. إن مدغشقر محمية طبيعية معزولة ، لذا يسهل أن تميز أى حشرة دخيلة عليها .. هل تذكر نكتة محاولة إخفاء ذئب وسط قطيع من الحملان ؟

بدأت تشريح الحشرة ببطء ..

سوف تحتفظ بثلاث فى حالة كاملة ، وسوف تحتفظ بواحدة فى الكحول ..

دق جرس الهاتف ..

هذا (جيفرى) يتكلم من مونتريال .. كيف حالك ؟.. هل أنت بخير ؟.. ألن تفكرى أن تكونى لى ؟.. ألن تصيرى لى للأبد لأحتكر أفكارك وعالمك وأرغمك على أن تأكلى ما أحب ؟.. ألن تقبلى حبى لأرغمك على مشاهدة الفرق التى أحبها فى الكرة ، وتشاهدى الأفلام التى أهواها .. ؟.. ألن تلغى وجودك نهائيًا وتكفى عن الاهتمام بهذه المخلوقات القبيحة الكريهة ؟

شكرًا لاتصالك يا جيفرى .. أنا بخير ..



لا . لن أعود قريبًا .. سوف أمضى فترة لا بأس بها هنا ... إن هذه البلاد كنز حقيقى .. كل شىء غريب .. كل شىء مثير . إن 80 % من الحيوانات الموجودة فى مدغشقر لا توجد فى أى دولة أخرى فى العالم. كل حديقة هنا فرصة ممتازة للتعرف على الحيوانات النادرة ومئات الأصناف من الحيوانات الزاحفة والطائرة ذات الألوان الزاهية.

شكرًا يا جيفرى ... اعتن بنفسك من أجلى ..

ووضعت السماعة وتنهدت فى راحة ..

كان جيفرى يسعى جاهدًا ليكون الرجل رقم 2 فى حياتها بعد انفصالها. لقد كان انفصالها عن زوجها متحضرًا ويناسب طبيعتها فعلاً ، لكن المشكلة هى أنها تخلصت من واحد ليظهر آخر .. سوف تتكرر الدورة للأبد ..

ربما كان السبب هو انهماكها فى العمل ، ولربما كانت تدنو من سن الإياس فعلاً .. لكنها لم تعد تهتم بالرجال بتاتا. تهتم بهم لأنهم أكفاء أو لأنهم شديدو البأس . . هكذا يسهلون العمل ..

فيما عدا هذا لم تعد تلاحظ بتاتًا إن كان رجل ما أكثر وسامة من غيره ..

فعلاً يوحى لها عالم الرجال بتورط نفسى لا شك فيه .. هى لا تملك سعة نفسية لذلك . إنها تحب عملها .. تحبه أكثر من اللازم ... عندما تكون هوايتك هى عملك فأنت قد انتهيت .. لن تبالى بأى شىء آخر فى العالم ، وهى تؤمن أن داروين ونيوتن وأينشتاين وهكسلى ولافوازييه وباستير كان عملهم هو هوايتهم .. لا شك فى هذا ..

غرد طائر فى قفصه فنظرت له وقالت :

ـ « للأسف أيها الوسيم .. لا أستطيع أن أطلق سراحك لكن أؤكد لك أنك ستحب كندا .. لتعتبر أنك أسير وأنهم اشتروك ونقلوك بسفن العبيد إلى كندا .. »

عادت تتأمل شاشة الكمبيوتر مدققة فى الصورة أكثر ..

هناك شىء آخر مهم فى هذه الخنفسة ... شىء مريب .. ماذا يحدث ؟

تشعر باضطراب فى شفتها .. هذا التنميل الغريب فى نصف لسانها ... تشعر أن خدها لا ينتمى لها .. كأن هناك ملايين الإبر تغرس فيه .. لماذا لا تستطيع تحريك لسانها ؟

مدت أناملها فشعرت بصعقة كهرباء تسرى فى تلك الأطراف ..

رباه .. أنا لست على ما يرام ..

نهضت مترنحة إلى الحمام .. سوف تأخذ قرصًا من البنزوديازبين ولسوف تشعر بهدوء وتنام .

لكن .. لكن ذلك التنميل يضايقها فعلاً .. نظرت لوجهها فى المرآة ..

ما سر هذا الاحمرار فى الخدين ؟

12 ـ وهى أيضًا ..

تلقت برنادت الخبر فى الصباح ..

بدا عليها الرعب والحيرة .. ثم وضعت السماعة ونظرت لى طويلاً .. وتحسست بطنها كما تفعل كلما ارتبكت هذه الأيام ..

قالت وهى تبتلع ريقها :

ـ « كان هذا نيرينا صديقنا .. برادلى .. برادلى النيوزيلندى .. »

قلت فى نفاد صبر :

ـ « لا نعرف أكثر من برادلى واحد .. »

ـ « لقد مات !.. »

نظرت لها فى غباء .. انتظرت قليلاً حتى استوعب الخبر ، ثم نهضت فارتديت ثيابى بسرعة ..

لقد فتك المرض السابع الذى لا نعرفه ببرادلى .. يبدو أن هذا المرض السابع هو أخطر مرض عرفناه مؤخرًا ، ولا أعرف إن كان علىّ أن أبلغ سافارى أم لا .. كل شىء يحدثنى أنها حالة

تسمم لكن من الوارد فعلاً أن أكون أحمق ويكون هذا مرضًا معديًا جديدًا ..

هرعت أغادر الدار فاستوقفت أول (توك توك) قابلته وانطلقنا لا نلوى على شىء نحو بيت برادلى ، وهناك أخبرتنى الخادمة أنه فى المستشفى .. سوف أجده .. لن أعجز عن ذلك.

طيلة الطريق تتردد فى ذهنى عبارة واحدة :

« ليس عندما تقترح هى هذه الفكرة .. كأنها تعد المسرح لما سيحدث .. »

كان يتكلم عن زوجته ..

★ ★ ★

هناك فى المستشفى بحثت عن الغرفة ، وكان أن وجدت صديقنا نيرينا يقف هناك أمام باب الغرفة وقد خفض رأسه فى أسى ..

وقفت جواره أتساءل عما حدث ..

قال لى إنها نوبة أصابت برادلى عند منتصف الليل .. تنميل شديد وإرهاق .. وكان يتحدث عن كهرباء فى أنامله. ثم إنه بدأ

يتدهور ونقلوه للمستشفى .. اكتشفوا أن عضلاته التنفسية مشلولة تمامًا . هذا سم عصبى بالتأكيد. طلبوا سيارة إسعاف من (أنتاناناريفو) كى تقله ، لكن العربة جاءت بعد دهر طبعًا كالعادة ، وعندما جاءت كان قد مات ..

جاء الطبيب الذى رآه ويدعى (جيلداس) .. وهو طبيب شاب مرهق مبعثر الثياب .. ويبدو أنه قضى يومًا أسود ..

سألته إن كان المتوفى قد قال شيئًا وهو يحتضر ..

قال د. جيلداس :

ـ « كان يتكلم الإنجليزية وأنا لا أعرفها .. »

هنا ظهرت الزوجة (ربيكا) من مكان ما .. شقراء تلبس ثيابًا سوداء ، وقد احمر أنفها كأنها كانت تبكى منذ دقائق .. وكانت تدخن لفافة تبغ وسط عشرات اللافتات التى تمنع ذلك ..

وقفت جوارنا فنقل لها نيرينا تعازيه الحارة ...

هزت رأسها فى تأثر وسحبت المزيد من الدخان ..

نظرت لى بعينيها الوقحتين الغاضبتين دومًا ، فقلت لها ببرود :

ــ « الآن أنت سعيدة جدًا .. »

هذه المرة نظرت لى فى دهشة ، فقلت :

ــ « لا دخل للسمك فى القصة .. موضوع سمك الفكهة هذا كان مجرد حارة مسدودة دخلناها وخرجنا منها ... براد لم يأكل سمكًا الليلة ، برغم أنه لم يقتنع بالقصة أصلاً .. »

هزت رأسها بتعبير شهير معناه (ماذا ــ يقول ــ هذا ــ المجنون ؟) ، فقلت مصرًا :

ــ « أنت قتلت برادلى بالسم .. سم عصبى لا نعرف اسمه .. سم يتصرف مثل مادة (تيترودوكسين) .. والآن يا دكتور .. أنا أطلب رسميًا تشريح جثة زوجها ، ولو لم تطلبوا ذلك فلسوف أبلغ الشرطة بشكوكى .. »

قالت ضاغطة على أسنانها كالنمر :

ــ « أنت تتهمنى أيها السيد ، ولسوف أرفع عليك قضية لرد اعتبارى .. سوف أدمرك تمامًا .. »

تبادلنا النظرات .. كانت نظراتها توشك على قتلى ، وأعتقد أنها كانت قمينـــة بأن تنشب أظفـــارها فى عنقى لولا وجود الطبيبين .. لكنى كنت كذلك مستعدًا لقتلها لو بدأت .. ابتعدى عنى يا سيدة فأنا خطر فعلاً .. أنا أحمق الحمقى عندما أغضب ..

على سبيل تهدئة الجو ، قال الطبيب المالاجاشى وهو يدون أشياء فى الدفتر :

ــ « سوف نتأكد من أن التشريح سيتم وسوف نبحث عن سم .. إن وفاته غامضة وغير مبررة وسنه صغيرة نسبيًا .. »

تنهدت فى ارتياح ..

برادلى ليس صديقى ، لكنى أحببته إلى حد كبير ، ولسوف يروق لى أن أعاقب من قتله ..

الزوجة تزعم أنها تحبه وأنه وغد نسيها فى غمرة العمل ، وهو يزعم أنها تحب شخصًا آخر وتريد الخلاص منه لتحصل على كل شىء ..

لا أعرف الحقيقة .. لكنى فقدت صديقًا بالتأكيد .. أتمنى لك التوفيق أيها الطبيب الشرعى ، وأدعو الله أن يهبك من حكمته قبسًا ... يجب أن يتبين نور الحقيقة لأحد ..

★ ★ ★

كنت على وشك مغادرة المستشفى عندما دعانى د. جيلداس إلى مكتبه .

كان مكتبه متواضعًا كأى شىء فى المستشفى .. الحقيقة أن جو الفقر يذكرنى بمصر جدًا . لا أعرف الكثير عن حياتهم السياسية لكن يسهل تخيلها .. كل الدول الأفريقية التى استقلت فى الستينات تخلصت من الاستعمار ، ثم جاء استعمار محلى شديد القسوة ليهيمن عليها .. هذا الاستعمار يعتصر خيراتها ، بينما الاحتكارات الغربية تنشب أظفارها فيها .. بعد أعوام يدرك أهل البلاد أن الاستقلال لم يتم كما توقعوا ..

كان جيلداس شابًا مالاجاشيًا نحيلاً .. كما قلت لك فإن الملامح الصومالية غالبة هنا . غرفته ضيقة دافئة ، وقد دعانى لاحتساء بعض القهوة .. الحقيقة أننا صرنا صديقين بسهولة .. هناك شىء ما يجذب الأطباء لبعضهم مهما كانت جنسياتهم ..

سألنى وهو يناولنى كوب القهوة الخاص بى ..

ـ « أنتم لا تقابلون حالات مماثلة فى سافارى ؟.. »

كان قد سألنى كثيرًا عن وحدة سافارى التى أعمل فيها فى الكاميرون وعن الكاميرون . بالنسبة له أقرب سافارى هى الموجودة فى جنوب أفريقيا . لا يريد العمل هناك لأنه يعتقد أن العصابات المسلحة ستسطو عليه وتذبحه فى أول خمس دقائق يقضيها هناك . يريد تحسين دخله فقط كما يبدو ..

قلت له إننا فى سافارى نرى شيئًا جديدًا كل يوم .. هذا جميل .. يساعد المرء على أنه يشعر بأنه حمار حتى آخر يوم فى حياته . شعور الحمار مفيد لأنه يرغمك على أن تتطور لتكون أفضل طيلة الوقت .. قلت له إن الضحية الأخيرة كانت تقترح أن يكون اسم المرض (المرض السابع) لأنه يذكرها بالمرض الخامس كثيرًا ..

قال لى مستمتعًا بالحوار :

ـ « هكذا تسمى هذا الوباء من الأشخاص الذين يشعرون بتنميل فى اللسان .. »

قلت فى دهشة :

ــ « هذا ليس وباء .. برادلى المسكين فقط .. »

ــ « هناك بائع خضر مسن مات منذ أيام بنفس الشىء .. »

أنا واثق من أن هذا ليس مرضًا معديًا .. لم أسمع عن وباء بهذا الشكل. حتى داء (البوتيوليزم) ليس عدوى قدر ما هو تسمم .. أنت تبتلع السموم التى صنعتها البكتريا من قبل ، لكنك مثلاً لا تصاب بالمرض لو تعاملت مع المريض .. لكن لماذا أكثر من حالة ؟

هــذا يذكرنى بالكسكسى .. هــذه الأكلة الشهية التى ترتبط بالمغرب العربى ، تصر فى مصر على أنها ليست أكلة وإنما هى مزرعة لبكتريا المكورات العنقودية. هكذا يأكل الناس الكسكسى من عربات الكشرى ويتسممون بالجملة ... هذا طبيعى . من الذى يملك عقلاً ثم يأكل مزرعة بكتريا كاملة .. ؟

برادلى قدم لنا الكسكسى فى ليلة العشاء إياها ، لكن موضوع التسمم غير مطروح هنا طبعًا ..

هل هناك أكلة جماعية تسبب تسممًا عامًا فى هذا البلد ؟.. للأسف لا أستطيع معرفة ذلك لأننى لست ابن البلد. يجب أن أقيم هنا عشر سنوات قبل أن أفهم ..

قال د. جيلداس :

ــ « هنــاك عالمــة كنــدية دخلــت المستشــفى أمس بذات الأعراض !.. »

لم أحتج لتخمين كثير لمعرفة اسم العالمة الكندية ..

ديبوراه !!



13 ـ لهواة الباتراكوتوكسين ..

عندما رأيت عالمة البيولوجى ديبوراه فى فراش المستشفى، أدركت أنها ستنجو .

كانت جالسة فى وضع فاولر ـ الذى يمنحه لها الفراش ـ وفى يدها كوب ورقى من القهوة ، وقد وضعت العوينات .. وكانت تراجع بعض الأوراق العلمية . لم أر من قبل مريضًا بهذه الحالة الممتازة ..

لما رأتنى وبرنادت وباقة الورد الشهيرة ، أشرق وجهها ودعتنا للجلوس ..

لا شك فى أنها جميلة .. بالتأكيد جميلة ..

قلت لها بكلمات منتقاة إن صديقنا برادلى قد مات ... هى تعرفه لأنها كانت فى حديقته. الأعراض العجيبة التى مرت به لا تختلف كثيرًا عن أعراض ديبوراه هذه ..

قلت لها إنه يمكن رسم دائرة .. دائرة حول بيت برادلى . وهذه الدائرة كما هو واضح تتضمن بائع الخضر بشكل ما ، وتتضمنها هى .. إن المشكلة تبدأ من عند برادلى بلا شك ..

قالت وهى ترشف القهوة :

ـ « هل بائع الخضر تعامل مع الحديقة ؟.. »

ـ « لا .. لكنهم يقولون إنه تناول وجبة سمك .. هى من بقايا عشاء برادلى .. إن السمك يظل هو المشتبه فيه رقم واحد فى قائمتنا .. »

مفكرة ابتلعت القهوة ثم قالت :

ـ « أنا أكلت سمكًا فى العشاء .. »

تبادلت النظر مع برنادت .. هل الدائرة تضيق ؟

ـ « هل كان من سمك الفكهة غالى الثمن ؟.. السمك الذى يشبه رقائق التونة ويؤكل نيئًا ؟.. »

لم يبد أنها فهمت ... كورت أنفها محاولة أن تنطق لفظة (فكهة) ثم قالت :

ـ « لا شىء من هذا .. مجرد شرائح سمك مقلى جاهزة .. ماك فيش .. »



هى امرأة عملية جدًا ولا وقت لديها لتعنى بطعامها أو تنتقيه .. الأكل بالنسبة لها واجب يؤدى بسرعة وبأى شكل ليمنحها القدرة على العمل ساعات إضافية ..

قالت وهى تزيح الملاءة :

ـ « أنا قد تحسنت .. سوف أطلب المغادرة اليوم .. »

قالت لها برنادت فى شبه توسل :

ـ « هل يمكنك أن تبتعدى عن أكل السمك ، وعن الاقتراب من فيلا برادلى ؟.. »

ـ « يا حبيبتى .. أنت تخافين علىّ .. »

قلت فى كياسة :

ـ « الحقيقة أنها ليست خائفة عليك .. هى فقط تريد تثبيت العوامل .. عندما تمرضين فى المرة القادمة سيكون بوسعنا استبعاد السمك والجو الملوث عند برادلي. هذه بديهيات لدى أى شخص له عقل علمى .. »



سوف نغادر بعد يومين ..

وداعًا يا مدغشقر الجميلة ..

نحن نتأهب لمغادرة هذا البلد الجميل .. لم تكن عطلة سيئة باستثناء أننا عرفنا صديقًا وقد مات ، لكن هذا أفضل سيناريو ممكن لمن يملك سوء حظى ..

قبل الرحيل اتجهت للمستشفى لأقابل صديقى الجديد د. جيلداس . كنت أريد أن أعرف ما توصلت له الصفة التشريحية الخاصة بـ (برادلى) ... لا شك أن الطب الشرعى قد وجد شيئًا ..

قال لى :

ـ « هناك آثار لسم .. هذا مؤكد .. وقد استطاع الأطباء فصل مادة اسمها . اسمها ... »

وبحث عن ورقة فى جيب المعطف قرأ ما فيها ليتذكر :

ـ « اسمها باتراكوتوكسين .. »



رحت أفكر فى الاسم بعض الوقت. لا يذكرنى بأى شىء على الإطلاق ..

هـل كانت زوجـة برادلى تدس له هذا الـ ... هذا الـ ... الباتراكوتوكسين فى طعامه ؟.. لو كان هذا صحيحًا فمن الممكن أن نفسر موت البائع كذلك .. لقد أكل نفس الطعام ، لكن تظل ديبورا لغزًا ..

ما هى خصائص هذا الباتراكوتوكسين ؟

سوف أخبر ديبوراه بالأمر على كل حال ..

★ ★ ★

عندما سمعت ديبوراه بالاسم بدت عليها الدهشة .. طلبت منى أن أكرر ما قلت ..

ثم حكت شعرها بحد المشط وقالت مفكرة :

ــ « الباتراكوتوكسين ...؟.. لكن لا توجد ضفادع هنا .. »

كانت جالسة فى الفراش تمشط شعرها دون أن تنظر لمرآة . معلنة كالعادة عدم مبالاتها بما تعتبره النساء والرجال جمالاً ...

أما أنا فكنت فى غاية الحيرة :

ــ « ضفادع .. أعتقد أننى سأكون غبيًا لو سألت عن العلاقة .. »

قالت وهى تفكر بعمق :

ــ « هذا هو سم الضفادع السامة فى كولومبيا .. سلالة (فيلوباتيس تريبليس) .. »

قلت فى غباء :

ــ « هذا جميل .. هناك سم ضفادع قادم من أمريكا الجنوبية .. كأننا فى إحدى قصص أجاثا كريستي. هل تريدين القول إن زوجة برادلى استوردت هذا السم لتدسه لزوجها فى الطعام ؟.. وأنت ؟.. هل تلوث إصبعك ولعقته وأنت فى الحديقة ؟.. »

بالطبع يبدو أن الزرنيخ أفضل بكثير .. أنا لو أردت قتل إنسان سأبحث بين العقاقير العلاجية لأجد شيئًا صالحًا بدلاً من هذا التعقيد . كان لدينا أستاذ عقاقير فى الكلية يحكى لنا عن زجاجة دواء السعال التى لا يتم رجها ، من ثم تتركز المادة الفعالة فى القــاع .. هنــا يأتى الموت الأكيد مع آخر جرعة. هذه ميتة

لا يمكن الشك فيها وتبدو حادثًا فعلاً. لكن لا تستورد سم ضفادع من أمريكا الجنوبية من فضلك .. الحياة لا تحتمل هذا التعقيد ..

رأيتها تنظر لى فى ثبات للحظات ثم قالت :

ــ « هناك مصدر رئيس لهذا السم .. المصدر الذى تأكله الضفادع فى غابات كولومبيا فتصير سامة .. هذا المصدر هو الخنفسة .. خنفسة الكوريسين !!.. »

14 ـ درس ساخن ..

هناك فى مكان ما تنتظر الخلية العصبية .. كأنها قلعة محصنة ..

البوابات المحيطة بها تتحكم فى دخول وخروج الصوديوم ، ومعظم توازن هذه الخلايا الكهربائى يعتمد على سيطرتها على هذا الأيون. هناك بوابات أخرى تتحكم فى دخول الجلوكوز .. الطعام .. بوابات تسيطر على البوتاسيوم والكالسيوم ..

ثم يأتى الخائن .. الخائن فى هذه الحالة هو سم الباتراكوتوكسين الذى يسيطر على بوابات الصوديوم . . هكذا يتدفق الصوديوم بلا حساب إلى الخلية ..

إنه الدمار ... يتهاوى كل شىء ..

تسقط الخلية ، ويموت برادلى ..

★ ★ ★

كانت هناك حلقة مفقودة ..

ديبوراه تتوقع أن سم الباتراكوتوكسين هو المذنب ..

لكن كيف ؟.. هل دسته الزوجة لزوجها ؟.. وكيف جاءت تلك الخنافس إلى هنا ؟

كان هذا هو السؤال عندما غادرت المستشفى ..

تلقائيًا وجدت أنها تتجــه نحو بيت برادلى الذى زارته من قبل .. اجتازت مدخل الفيلا ومشت بين الأشجار تتشمم وتنصت .. حلق طائر مذعورًا لدى قدومها وطارت فراشتان .. ثم إنها جثت على الأرض وراحت تتحسس التربة .. دنت من الأعشاب على جانب الممشى فوجدت خنفستين تلهوان هناك. يا لها من خنافس رائعة الجمال لكنها قاتلة ..

والسؤال الأهم هو : كيف وصل السم لمن تعامل معها ؟

هل عن طريق الشم ؟..

لم تسمع قط أن هذه الخنافس سببت تسمم أى شخص فى كولومبيا .

كانت تريد أن تجرب فأمسكت بخنفسة وضعتها على راحتها وراحت تراقب حركتها المذعورة .. حركت كفها بعنف وانتظرت.

لا جدوى .. لم تلدغها الخنفسة .. لو كانت عندها نية اللدغ لفعلت ، لكن من الواضح أنها مسالمة جدًّا ..

كانت محتبية على الأرض تدرس التربة ..

هنا مثلما يحدث فى أفلام الرعب وجدت أنها تحدق فى قدمين فى حذاء أسود لامع غليظ ... قدمى أنثى فى حذاء قوطى ..

رفعت عينيها فرأت (ربيكا) الأرملة السوداء النيوزيلندية ترمقها وقد عقدت يديها على صدرها ..

كانت تلبس الأسود كعادتها بينما هالات سوداء كثيفة حول عينيها وهى تدخن فى نهم .. الدخان يخرج من طاقتى أنفها المدعمتين بحلقة كأنها بقرة فى قطيع ..

نهضت ديبورا مرتبكة فقالت ربيكا :

ــ « هل انتهى التحقيق ؟.. »

كانت تتكلم بسخرية طبعًا ..

وقفت ديبوراه وقد وجدت أنه لا داعى للتمثيل ، فقالت :

ــ « لم ينته بعد .. نحن نشك فى أنك كنت تدسين لزوجك سمًّا عصبيًا اسمه الباتراكوتوكسين .. ونحن نبحث عن حلقة الوصل .. صدقينى سوف نجدها .. أنت بطة ميتة كما يقول الأمريكان .. »

قالت ربيكا :

ــ « أنا عائدة لنيوزيلندا .. سوف أدفنه هناك ، لكنى برغم ذلك لا أترك فرصة لأقول لامرأة حمقاء مثلك كم هى حمقاء .. لقد بدأ كل شىء مع ذلك الطبيب المصرى الذى لم يكف عن اتهامى .. أنتم نموذج للحمق البشرى كما يجب له أن يكون .. »

قالت ديبوراه :

ــ « على كل حال أنا فى طريقى لمخاطبة الشرطة .. لابد من البحث عن مصدر هذا السم فى بيتك .. »

كان عقلها يعمل بسرعة .. المصدر موجود .. فعلاً موجود .. لكن هل الزوج كان يأكل الخنافس ؟.. هل كانت زوجته الشيطانية تطحنها له ؟.. فعلاً هو لغز قوى ..

قالت ربيكا وهى تلقى بالسيجارة ثم تدوسها بحذائها الغليظ :

ــ « حتى ذلك الحين أنت ممنوعة من دخول حديقة دارى يا أختاه .. »

التفت ديبوراه واتجهت للخروج بخطوات ثابتة ..

قبل أن تفهم ما يحدث خيل لها كأن قطارًا قد دهمها .. هل هناك قضيب قطار فى هذه المنطقة ؟.. هل قاموا بتركيب سكة حديدية فى الحديقة ؟

أدركت أن المرأة وثبت عليها وألقتها على وجهها فى الغبار ، ثم جثمت فوقها وراحت تكيل لها الصفعات ..

كانت ديبوراه ضعيفة جدًا بعد مرضها ، والمرأة كانت قوية فعلاً .. هكذا وجدت الأولى أنها الطرف الأضعف بلا جدال. وأقرت بهزيمتها على الفور فلم تحرك إصبعًا .. .

الزوجة راحت تنهال عليها صفعًا وبصقًا وهى تشتمها بلا توقف :

ــ « **اخرجى من حياتى أيتها القذرة .. اخرجوا جميعًا** !!.. »



وطبعًا لا يخفى على القارئ أن نصف هذه الصفعات موجه لى أنا .. لحسن الحظ أننى لم أكن موجودًا ، خاصة أننى من الطراز الذى إذا ضربته امرأة تلقى الضرب فى الصمت ولم يرفع يده .. لا أضرب امرأة أبدًا لكنى قد أخنقها لو أثارت أعصابى أكثر من اللازم !

لكن ديبوراه كانت فعلاً معدومة الحيلة .. رقدت على ظهرها فى الغبار وراحت تبكى وتئن ، ولم تحاول حتى حماية وجهها ، بينما المرأة القوطية تواصل الدرس. راحت تردد :

ــ « **عليك اللعنة أيتها الشيطانة .. سحقًا لك ..** »

فلما انتهت الزوجة من إخراج طاقة العنف نهضت .. نفضت الغبار عن ثيابها السوداء ثم وجهت ركلة أخيرة لخاصرة ديبورا وابتعدت ..

قالت ديبورا فى وهن :

ــ « سوف .. سوف أشكوك أيتها الــ ... »

ــ « وددت لو فعلت .. أنت متعدية على أملاك خاصة .. من واجبى أن أطلب الشرطة ، لكنى سأكتفى برفع قضية عليك وعلى أصدقائك .. »

ثم أخرجت لفـافة تبغ أخـرى .. شـبه مهشمة لكنها قابلة للإشعال .. أطلقت سبة ثم اتجهت عائدة للبيت ..

وكان على ديبورا أن تنهض وتضع منديلاً على فمها الذى راح ينزف بلا انقطاع ..

الحق أنها تلقت علقة ساخنة لا بأس بها ..

على الباب وجدت أنها مهدمة تمامًا لا تقدر على مزيد من المشى .. أشارت تستوقف (توك توك) .. ألقت بنفسها على المقعد الخلفى بينما السائق ينظر لها فى ذهول ..

مهما أقسمت للناس فلن يصدق أحد أن من فعل هذا بها امرأة .. سوف يسألونها عن أسـماء الرجـال الستة حاملى الأثقال الذين ضربوها بهذا الشكل ..

ذكرت للسائق عنوان بيتى المؤقت ، وقد كانت تعرفه الآن جيدًا ..



15 ـ المتهـم يسـقط ..

راحت برنادت تضع الكمادات على وجه ديبورا .. كدمات هنا وانتفاخات هناك ونزف تحت الجلد ورضوض .. لا شك أنها لن تختلف كثيرًا لو داسها فيل ..

قالت وهى تشعل لفافة تبغ :

ـ « أى ... أنا المخطئة على كل حال .. المرء لا يتسلل لحدائق الناس ليثبت أنه على حق .. أى .. »

قالت برنادت :

ـ « ما زلت أعتقد أنها بريئة ... فقط هى تعرضت لضغوط جعلتها متوحشة .. الآن صـارت أرملة فى بلـد أجنبى كذلك .. ليس أفضل مستقبل محتمل .. »

بدت لى برنادت مبالغة فى الرقة .. لا شك أن الحمل يزيد من الأمومة والحنان ، وهكذا تجد أنها مستعدة لقبول أفعى مثل هذه ..

الأرملة السوداء .. هذا مؤكد ..

كنت أفكر فى براندلى المسكين .. ميتة لم يكن يستحقها فعلاً ..

أحضرت لديبورا كوبًا من العصير ، ثم جلست على مقعد بعيد أفكر ..

لمـاذا لم أصـب بالتسمم أنـا أو برنادت ؟.. لماذا لم يصب نيريا ؟.. إذن هذا يشير بوضوح إلى أن هناك عملية من التعمد .. هناك من يدس السم عمدًا ..

وهنا أصطدم بجدار آخر ... لماذا أصيب بائع الخضر ؟.. ولماذا أصيبت ديبورا ؟.. معنى هذا أن هناك جزءًا من المصادفة وأسلوب عمل الحوادث العشوائى ..

لحسن الحظ أننى راحل .. لا أريد معرفة حل هذا اللغز ولا أهتم به ..

هنا دق جرس الهاتف .. اتجهت ورفعته ..

كان هذا صوت ربيكا تقول فى وهن :

ـ « أنا لست بخير يا د. عظيم !.. »

مبحوحًا غريبًا واهنًا ..



* * *

عندما عدت بعد ساعة كانت برنادت قد أعدت على الأريكة ما يشبه الفراش المريح الجالس لديبورا ، وقد ضمدت معظم جروحها .. كما كانت هناك طاقية ثلج على رأسها ..

قالت لى برنادت :

ــ « هه ؟.. هل كان فاصلاً تمثيليًا ؟.. »

قالت ديبورا وهى مغمضة العينين :

ــ « أى إنسان يكيل لى كل هذا الضرب لابد أن يمرض بعدها .. لقد بذلت المرأة فى ضربى جهدًا فوق طاقة البشر وإننى لأحييها .. »

ثم أضافت :

ــ « لكن أعتقد أنها تحاول درء الشبهات .. تقول لنا : أنا كذلك أمرض مثل زوجى .. »

وقفت على الباب قليلاً وتحسست لحيتى .. ثم قلت وأنا أتحاشى النظرات :

ــ « لا أعتقد أنها تمثل .. كان صدرها يحدث أزيزًا قويًا كمرضى الربو الشعبى .. وكانت هناك صفعة قوية مرسومة على

خدها .. كما أنها كانت تشعر بذلك التنميل اللعين .. كانت مذعورة فعلاً .. أكرر .. وقد طلبت عونى برغم كبريائها ، فقد شعرت بأن عندى فكرة عن الموضوع .. »

جدعان حارة حارتنا .. إللى إنتى ساحراهم

باتوا حيارى حيارى .. وكمان سهارى .. سهارى

هما طبيعى طبيعى ؟ وإلا إنتى قارصاهم ؟

هما طبيعى طبيعى ؟.. وإلا إنتى عاضاهم ؟

لكنى استبعدت موضوع القرص هذا ..

لقد أصيبت ربيكا بهذا التسمم وعلينا أن نقبل الحقيقة يا سادة .. لو كانت هى من يدس السم فقد ابتلعته بطريق الخطأ .. ولو كانت بريئة فهناك من يحاول قتلها بدورها ..

قالت (ديبورا) فى حيرة :

ــ « الأمر معقد فعلاً ... لن نعرف أبدًا .. لكن الطريقة الخرقاء التى يصاب بها الناس وهذه العشوائية تشعرنى أن الأمر لا يتعلق بلعبة سم .. هناك مشكلة بيئية ما .. »

قالت برنادت :

ــ « الخنافس .. أنت قلت هذا .. يمكن بسهولة أن نفترض أن برادلى جاء معه ببعض الخنافس فى أغراضه ، ثم أطلق سراحها فى الحديقة .. »

ــ « لا يحتاج الأمر لهذا .. قلت إن الخنفسة موجودة بكثرة فى غينيا الجديدة وغابات المطر فى أمريكا الجنوبية .. لكن هذا لا ينفى أن توجد هنا . . . .. »

ــ « إذن الأمر واضح .. الخنافس لدغت من تعامل معها .. »

أطلقت دائرة دخان عملاقة وهى مغرقة فى التفكير ، ثم قالت :

ــ « ليس بهذه السهولة .. أنا جربت أن تلدغنى هذه الخنفسة بكل طريقة ممكنة ، لكنها لم تفعل .. مسالمة وبلهاء تمامًا .. إن سميتها تأتى بشكل سلبى .. أنت تعرف أن كبد الدب القطبى سامة وتقتل الذئاب لو أكلتها. الدب لم يتعمد هذا .. لكن هذا حدث .. »

ثم كررت :

ــ « لكن هذا حدث !.. »

واتسعت عيناها .. خيل لى أننى رأيت فى الهواء مصباحًا كالذى تراه فى القصص المصورة .. لم يبق إلا أن تمد يدها فتطفئه .. لقد وجدت فكرة ممتازة ..

ثم نهضت مسرعة وصاحت بى ، وهى تبحث عن معطفها :

ــ « لابد أن أعود لبيت برادلى .. لقد وجدت الحل !.. »

ــ « حل ؟.. أى حل ؟.. »

ــ « البيتوى ديكروس !.. كيف فاتنى هذا ؟.. »



16 ـ المتهم يسقط أكثر ..

للمرة الثانية اجتزنا مدخل بيت برادلى المفتوح ..

كانت هى هنا منذ ساعات وكنت أنا هنا منذ ساعة ، فماذا عسانا نجد من جديد ؟

والمشكلة هى أن الزوجة ضربتها علقة ممتازة ثم طردتها .. سوف يكون موقفًا سخيفًا لو وجدتها ثانية .. هذه المرة سوف تطلب الشرطة لنا حتمًا ..

أشارت ديبوراه إلى الأرض وابتسمت بطريقة ذات معنى .. كان من السهل أن أرى فى الغبار معالم التحام جسدين .. هناك كعب حفر الأرض بقوة . هنا كانت المعركة التى فتكت فيها الأرملة السوداء بالعالمة ..

ركعت على ركبة واحدة وهى تئن ، ثم تفحصت الأرض .. رأيتها تلتقط حجرًا .. تطوح به فى الهواء ..

ثم .. هوب .. !..

قذفت الحجر على غصن شجرة فوقنا فرأيت طائرًا يسقط على الأرض ... كانت ضربة محكمة جدًا ذكرتنى بأطفال شارعنا ..

ـ « هل أنت مخبولة ؟.. »

رأيتها تمسك بالطائر المحتضر فتضعه فوق العشب ، وبسرعة وبيد خبيرة أخرجت من جيبها مبضعًا .. انتزعت الريش من فوق حاصلته ثم شقت الحاصلة ببساطة ..

وعندما أفرغتها رأيت تلك الحشرات المهضومة تنسكب على الأرض .. الشكل المميز والألوان الزاهية لتلك الخنفسة ..

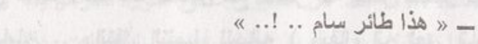
ونظرت لها فى غباء فقالت وعلى شفتيها ابتسامة منتصرة :

ـ « ألم تفهم بعد ؟؟؟.. »

ـ « نعم .. لا أفهم .. كنا قادمين لمواجهة الزوجة فقررت فجأة أن تفتحى محلاً لذبح الطيور .. »

قالت وهى تحمل الطائر :

ـ « هذا طائر سام .. !.. »



* * *

فى البداية كنت أحسبها تمزح أو تبالغ فى التذاكى ، ثم تبين لى أنها جادة تمامًا وأن ما تقوله معروف منذ زمن ، وحقيقى تمامًا ..

الطيور السامة .. هل سمعت عنها من قبل ؟.. هل تعرفها ؟

القصة تبدأ مـن غينيـا الجديدة ـ وهى قريبة من نيوزيلندا لو كنـت نسـيت الجغرافيا أو كنـت تخلط بينها وبين غينيا القديمـة فى أفريقيـا ـ وبطلهـا طـائر يدعى (طـائر الزبالة أو البيتوى ديكروس) ..

كان أول من وصف هذه الظاهرة عالمًا أمريكيًا اسمه جون دومباشر . كان هذا عام 1989 ، أى أن خبراتنا حول الموضوع لا تزيد على خمسة وعشرين عامًا ..

لقـد أمسـك بطـائر من النوع .. طائر جميل فعلاً يبهر أى عالم ..

لكن العالم لاحظ بعد التعامل مع الطائر أنه يشعر بتنميل قوى فى أنامله .. وانتقل التنميل للسانه (ويقال إنه لعق أنامله فسببت هذا) .. . ثم شفتيه ..

حريق هائل فى لسانه .. إحساس كأنه ابتلع الشطة .. أو كما وصفه (كأنك تلمس بطارية جافة قوتها 9 فولت) ..

بعد بحث عميق وجد الأطباء أن السبب سم قوى ـ من أقوى السموم غير البروتينية ـ اسمه (هوموباتراكوتوكسين) .. هذا السم موجود بنسبة هائلة فى ريش الطائر وجلده ..

وجد الأطباء تشابهًا قويًا جدًا مع سم الباتراكوتوكسين كما قلنا ، وهو سم ينتشر لدى ضفادع كولومبيا السامة .. والضفادع تحصل عليه من التهام الخنافس المسماة كوريسين ..

كنا واقفين فى الحديقة نتبادل الآراء .. أعنى أننى أسمع منها هذه المعلومات المذهلة ..

الطيور تحدث صخبها المعتاد ، لكنها المرة الأولى التى أتعامل معها بخوف وتهيب ..

لقد نجحت إنفلونزا الطيور فى القضاء على أسطورة الطائر المسالم .. لم تعد كل الطيور تحلق حول سنوهوايت وتحمل رداءها وتقبلها فى فمها .. لو فعلت سنوهوايت هذا لوجدت نفسها فى عنبر الفشل التنفسى بمستشفى صدر العباسية ..

الآن يبدو أن هناك كارثة أخرى ..

الطيور السامة !.. هذا كفيل بأن يدمر جبلاً من الرومانسية ..

إذن أى تعامل مع هذه الطيور السامة .. لمس ريشها .. استنشاق الهواء الذى يحمل ريشها .. كل هذا يسبب التسمم ..

إن درجة السمية تتباين من طائر لآخر . ومن الواضح أن الحالة هنا عنيفة جدًا ، فقد ظفرنا باثنين ميتين ...

من أين تأتى الطيور بالسم ؟..

عندما توجد الطيور فى بيئة من دون خنافس فإنها تظل مسالمة وديعة ، أما فى وجود الخنافس التى تحمل السم ، فالطائر نفسه يصير سامًا مؤذيًا .. أى أن الطيور تكرر نفس سيناريو الضفادع ..

إن طائر البيتوى ديكروس هو ذو القلنسوة والأجمل شكلاً وسط هذه الأنواع . هناك كذلك البيتوى المختلف والبيتوى ذو لون الصدأ .

كل طائر سام يتم تشريحه ، لابد أن تجد فى بطنه تلك الخنافس الجميلة ..

أما عن الطريقة التى تتحمل بها الطيور هذا السم فلغز آخر .. لكنها طريقة دفاع طبيعية ناجحة . لا شك أن الثعبان أو الفأر الذى يقترب من هذه الطيور يتعلم الدرس بسرعة ويقرر الابتعاد ..

هناك فى غينيا الجديدة نوع من الطيور يعرف باسم إيفريتا (عفريته) .. طائر أزرق يسمونه (الطائر المر) .. وهو يختزن السم فى ريشه ، وهكذا فهو يسبب الربو الشعبى بقوة لمن يتعامل معه..

طائر سام !..

سبحان الله !.. لن يصدق أحد هذا الكلام لو حكيته له ، إلا لو جلبت له مراجع علمية محترمة ...



17 ـ ثـورة ..

هكذا أمكننا أن نرتب الأحداث ...

لقد جاء برادلى من نيوزيلندا وهو يحمل معه بعض الخنافس ليدرسها هنا .. الخنافس مسمومة لكنه لا يعرف هذا . فجأة قرر أن يتخلص من هذه العينات .. طبعًا ألقاها فى الحديقة لأنه غير مولع بالإيذاء. ما حدث هو أن الخنافس تكاثرت وصارت منها أسرة كاملة تعيش فى الحديقة ، هنا يأتى طائر البيتوى ديكروس ويتذوق هذه الخنافس .. إنها شهية المذاق كما هو واضح. لها طعم الدجاج كما يقول الغربيون . وهكذا يتكرر بالضبط ما حدث فى غينيـا الجديدة ، وتحـول الطـائر إلى خـزان لسـم (هوموباتراكوتوكسين) ..

كل من تعامل مع الطائر أو التقـط عصفورًا رقيقًا بين أنامله أو وقف فى الحديقة ليلاً ، حصل على جرعته من السم .. بعض الناس تأخر تعاملهم وبعضهم تعاملوا مبكرًا .. هذا يفسر لماذا أصيبت الزوجة فى وقت متأخر جدًا .. هى ليست سنوهوايت

التى تلعب مع الطيور .. لا علاقة لها بالطيور بتاتًا لكن يبدو أن معركة الحديقة عرضتها للريش ..

أما عن ديبوراه الحمقاء فقد جلبت معها خنافس وطيورًا .. لم يكن هناك خطر من الخنافس طبعًا .. لم تعرف أنها جاءت بكارثتين فى القفص ..

أعتقد أن التعرض المتكرر يمكن أن يؤدى للموت فعلاً. لحسن الحظ لم تتعرض ديبوراه إلى هذا الحد ..

لم يكن هـذا هو المرض السـابع .. لا يوجد شىء اسمه المرض السابع على الإطلاق .. احمرار الوجه عند الخدين والألم والتهاب المفاصل مجرد أعراض للسم ..

★ ★ ★

كان الليل قد بدأ يهبط ، وسألتنى ديبوراه حيث وقفنا فى الحديقة :

ـ « كيف نكافح هذا المرض ؟.. »

وما دورى أنا ... ولماذا تسألنى ؟..



ثم فطنت إلى أن دورها كعالم قد انتهى وهى الآن تقذف الكرة فى أرضى باعتبارى ممارسًا للطب الإكلينيكى . قد يقضى عالم عمره فى وصف الشرايين وسريان الدم فيها ، لكنه فى النهاية يترك الأمر للطبيب الذى يعرف كيف يقيس ضغط الدم ...

قلت لها وأنا أتأمل الطيور التى بدأت تأوى إلى الأغصان :

ــ « هذا سم عصبى .. لا يوجد حل معروف سوى أن نتحاشى الإصابة .. نكافح الطيور ونكافح الخنافس معًا .. »

ثم أضفت وأنا أمسك بيدها :

ــ « تعالى نر الزوجة معًا .. نحن مدينان لها باعتذار .. »

وصلنا للباب فدققناه ، وجاءت الخادمة تفتح لنا ...

هناك على أريكــة ــ نفس أريكــة برادلى ــ كانت الأرملة السوداء بثياب الإيمو أو الثياب القوطية ترقد وقد ربطت رأسها .. فلما رأت ديبورا توترت ..

جدعان حارة حارتنا .. إللى إنتى ساحراهم

باتوا حيارى حيارى .. وكمان سهارى .. سهارى

قلت لها :

ــ « هى تلقت الضرب منك لكنها جاءت تعتذر لك .. لقد ظلمناك فعلاً .. أولاً شكلك لا يطاق لذا اعتبرناك شرير الفيلم ، وساعد على هذا أسلوب الجفاء الذى تتعاملين به .. إن برادلى ظريف حبوب يسهل أن يضم أى إنسان لصفه بينما أنت تفعلين العكس .. النقطة الثانية هى أن ما حدث يفوق الخيال .. »

وراحت ديبوراه تحكى لها كل ما كان ..

كانت جلسة عاطفية ممتازة بكت فيها المرأتان وتعانقتا آلاف المرات ...

كنت أنا جوار النافذة أتأمل الطبيعة الغناء بالخارج ، هنا شعرت بالخادمة تدنو منى .. خادمة مالاجاشية سوداء تجيد الفرنسية ..

وضعت يدها على كتفى وهمست :

ــ « سيدى .. هل لك أن تنظر لخارج النافذة .. »

لم أفهم ما تريد .. كان الليل قد جاء بشكل كامل ، وقد أضيئت بعض المصابيح هنا وهناك .. إننى أرى الحديقة بوضوح ..

ثم أدركت ما تتكلم عنه ..

ناديت المرأتين وطلبت أن تريا الحديقة ..

شهقت ديبوراه بينما بكت ربيكا ..

لقد صارت الحديقة مستعمرة طيور .. مئات الطيور هناك على غصون الأشجار وفى الممرات وعلى السور الحديدى ، وفوق صندوق البريد ، وفوق تمثال بابا نويل الواقف هناك ..

كل شىء مغطى بالطيور ..

كانت تتحرك بلا توقف .. توتر شديد فعلاً ..

استدرت للمرأتين ، وحمدت الله أن برنادت ليست هنا معنا .. هل هذه الطيور وديعة ؟.. هل يمكن أن نخرج فى سلام ؟

سألت ديبورا عن سبب هذا الحشد فقالت :

ــ « لا أعرف .. سلوك غير معتاد ولعل هذا السم يقود للجنون بعد جرعة معينة .. »

ــ « قلت إن الطائر يحمل السم لكنه لا يتأثر به .. »

قالت فى غيظ :

ــ « ليست هذه قواعد علمية ثابتة .. كل شىء جديد وأنا لست خبيرة بهذا الطائر. .. »

لم أعلق ..

اتجهت للباب وبحذر فتحته ثم تحركت فى الحديقة لنصف متر .. سوف أزحف إلى باب الفيلا وأطلب نجدة ..

هنا فوجئت بأننى فعلاً فى مشهد من فيلم طيور هتشكوك ..

لقد دب الهياج فى هذه الطيور فراحت تحلق من حولى وتضرب وجهى بأجنحتها .. ومن فوق الأشجار أخذت طبقات تلو طبقات تتحرك .

تذكر أن كل طائر يحمل الموت فى ريشه ..

هكذا جريت لأفتح الباب وأثب للداخل ، وسمعت الطيور ترتطم بالباب وسمعت الرفرفة .. لكنى كنت مشغول بنزع قميصى وتنفيضه وتنفيض شعرى .. لا أريد أثرا من هذه ...

قالت ديبورا :

ــ « الأمر واضح .. إنها فى حالة غير طبيعية .. ستهاجم كل من يحاول الخروج .. »

قلت :

ــ « على الأقل هى لا تنزع العيون مثل طيور هتشكوك ولكنها سوف تعطيك جرعة سم ممتازة .. »

ثم نظرت للخادمة :

ــ « اطلبى الشرطة على الهاتف .. »

ــ « لا يوجد خط هاتف !.. »

نظرت لهـا فى غيـظ .. إذن كيـف يطلبنى برادلى وزوجته عشر مرات فى اليوم ، والمرة الأخيرة كانت من الزوجة منذ ساعات .. ؟

قالت ربيكا مفسرة :

ــ « ينقطع خط الهاتف كثيرًا فى هذه الجزيرة .. لقد اعتدنا هذا .. »

ــ « هل لديكم هاتف جوال هنا ؟.. »

ــ « شبكة الجوال تسقط كثيرًا فى هذه الجزيرة !.. »

لكنى ببساطة لن أمضى الليل هنا . دعك من أن هذه الطيور ستجد منفذًا كما فى فيلم الطيور فعلاً. سوف تهجم من مدخنة المدفاة لتقتلع عيوننا ..

طلبت من الخادمة أن تعد لى أربع ملاءات .. وهكذا عكفنا على لف الملاءات على أجسادنا بحيث لا يبرز إلا الوجه .. كل الأعضاء محمية بشكل أو بآخر .. وكانت هناك نظارات شمس وزعناها على المرأتين ولبست أنا عويناتى العادية أما ديبورا فوضعت عوينات القراءة .. هل معك مفتاح السيارة بالخارج ؟.. جميل ..

أحضـرت لى الخـادمة ثلاث قطـع مـن الخشب فلففت حول كل منها قطعة قماش ، ثم سكبت عليــه مــن سائل إشعال الموقد .. وأشعلت الثقاب لتصير لدينـا ثلاثة أوتـاد مشعلة . طبعًا لن أعطى ربيكا وتـدًا لأنها واهنـة وسـوف تحرق نفسها قطعًا ..



جميل .. لقد صار منظرنا بهذه الأوتاد المشتعلة كــأننا من عصابات الكوكلوكس كلان KKK وكأننا ذاهبون لإحراق بيوت السود فى ألاباما ..

ـ « هل أنتن جاهزات ؟.. »

ـ « نعم .. »

فتحت الباب وانطلقت وهن من خلفى ..

انقضت الطيور علينا وحامت حولنا لكنى رحت أضرب ما استطعت منها بهذا اللهب .. لم أسمح لأى منها بالاقتراب منى .. كان العدد مهولاً فعلاً ..

وأخيرًا دنونا من باب الفيلا .. طلبت من ربيكا أن تفتح سيارة زوجها ، فدخلت . وأولجت المفتاح فى الكونتاكت .. طوحت بالمشعل وكذا فعلت ديبورا والخادمة ، وسرعان ما كنا نثب داخل السيارة ونغلق الزجاج .. برغم هذا تكاثفت الطيور على الزجاج وراحت تنقر ..

قلت لربيكا وأنا أضع يدى تحت ذقنى :

ـ « بالطبع لن يعمل المحرك .. هذه قواعد لا تتزحزح .. »

فروووووم !

لكن المحرك دار وأخرسنى وسرعان ما كانت السيارة تنطلق فى طرقات الضاحية الهادئة ..



18 ـ خاتمة ..

فى المطار فى (أنتاناناريفو) ..

كان معنا هذه المرة نيريا وزوجته ، وجاءت ديبورا وربيكا لوداعنا ..

قالت ديبورا وهى تعانق برنادت :

ــ « سوف نلتقى ثانية ، فقط أرجو أن تعنى بطفلتك أو طفلك .. »

وقالت ربيكا لنا :

ــ « آسفة على ما كان منى .. لقد كان سوء تفاهم مزدوجًا .. »

كانت ستسافر إلى نيوزيلندا غدًا ، وتنتهى علاقتها بمدغشقر تمامًا .. لقد فقدت زوجًا فى ميتة غريبة غير مبررة تمامًا .. قليل من الناس من يموت بوساطة طيور جميلة الشكل ..

أما عن مذبحة الطيور التى تمت ، عندما تم رش الفيلا بالمبيدات فهى لا تريد أن تذكرها .. لقد امتلأت الحديقة بالجثث ، وبالطبع ماتت الخنافس فى الوقت ذاته ..

قالت ديبورا :

ــ « استنقذت بعض الجثث للطيور والخنافس . سأعد ورقة بحثية ممتازة .. »

ثم قالت :

ــ « وداعًا .. »

وقبل أن أفهم ما يحدث أحاطت عنقى بذراعها وطبعت قبلة على خدى ..

تراجعت للخلف شاعرًا بأن أقطابًا كهربية لمست خدى .

صحيح أن هذه طريقتهم وثقافتهم لكنى أرتبك بصورة خاصة ، فإذا ما أضفنا لهذا أننى أعتبرها مخلوقة ساحرة فعلاً فإن موقفى مفهوم ..

كانت تلوح وهى تبتعد ..

وقلت لبرنادت وأنا أدفع الحقائب :

ــ « اسمعى .. أنت توقفت عن هذه العادة منذ تزوجنا .. هه ؟.. »

ــ « أى عادة ؟.. »

ــ « لا عليك .. لقد توقفت عنها على كل حال .. »

★ ★ ★

ما سبب هذا السلوك العدوانى الذى أصاب الطيور ؟

على قدر علمى لم يكتب أى مكان عن أن الطيور تتصرف بعدوانية عندما تحمل السم .. لابد أن ديبورا تملك لهذا تفسيرًا ..

هل تم القضاء على الخنافس كلها ؟.. وهل سوف تتكاثر ثانية ؟.. وهل تكتشف الطيور من جديد أنها لذيذة المذاق ؟

أسئلة كثيرة تعصف بذهنى ، لكنى عائد للكاميرون ولن أرى هذه المشاهد ثانية .. سوف تذوب هذه الذكرى للأبد . أما عن إجابة هذه الأسئلة فأمر لا يشغلنا كثيرًا هنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم

(أنتاناناريفو)

تمت بحمد الله





سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد كى يظل حيًا وكى يظل طبيبًا



د. أحمد خالد توفيق

المرض السابع

اليوم نتكلم عن المرض السابع .. هل تعرف المرض السابع ؟.. ما هى أعراضه ؟.. إنها ببساطة أعراض المرض السابع .. ما مسبباته ؟.. إنها هى مسببات المرض السابع .. كيف تشخصونه ؟.. نشخصه كما نشخص المرض السابع .. وكيف تعالجونه ؟..

لا يوجد علاج يا صديقى ..

ظننت هذا مفهومًا !

العدد القادم

الوحدة 731

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



